أحلام اللعنة العائلية

متوالية قصصية

ممدوح رزق



أحلام اللعنة العائلية

متوالية قصصية

ممدوح رزق

صورة الغلاف والفوتوغرافيا المرفقة بنصوص المتوالية: ممدوح رزق

(1)

بعد أن مات جميع أفراد أسرته بشكل متلاحق، إما فجأة، أو نتيجة أمراض غريبة، أو كختام لعذابات غير مصدّقة؛ اكتشف في جوف الأريكة القديمة ورقة الطلسم الذي تسبب في كل ما حدث .. الورقة التي كان قد خبّأها بنفسه.

(2)

كتابة بحبرٍ ثقيل أسود ظهرت بصورة مباغتة على الجدار .. كأنها كانت تنتظر أن يصبح البيت خاليًا من الأحياء عدا هو .. وقف يقرأ الكلمات القليلة التي تبدو كأنما كتبها طفل يطارده ضيق الوقت .. كائن يُعرّف نفسه باسم غير مفهوم، مقترنًا بتخطيط بدائي لسمكة كبيرة، ومدوّن بجواره تاريخ قديم محدد باليوم والشهر والسنة، ثم يقول أن هذا المكان به خريطة مشيرًا بسهمٍ طويل نحو رسم صغير لعظمة بشرية .. بعد زمن طويل من التطلّع إلى وجهه في المرآة؛ تذكر أن هذا الاسم كان واحدًا من الأسماء الغريبة المرتجلة التي تعوّد في الماضي أن يطلقها على مخلوقات مجهولة ظل يخاطبها في دعاباته السرية حينما يكون وحده داخل البيت، وأن السمكة الكبيرة سبق أن رآها في كابوس تبددت تفاصيله الأخرى كليًا من ذاكرته .. انتبه أيضًا إلى أن هذا التاريخ الملغز يسبق ميلاد أبويه، ولكنه كان متأكدًا تمامًا أن ثمة خريطة بالفعل في المكان الذي تم الترميز إليه بعظمة الإنسان .. القبر .. قبره الخاص الذي فُتح الآن.

(3)

ظل يتنقل بين بيوت أقاربه الذين مازالوا على قيد الحياة بحثًا عن السر .. يخرج مترنحًا من كل بيت، مثقلًا بحكاية جديدة لا تخدش الغموض، بل على النقيض تدعم جموده الأزلي الذي قتل أبويه وأشقاءه على نحو لا يمكنه استيعابه .. كل حكاية يحصل عليها تبدو كأنما تخص بشرًا لم يعرفهم من قبل، يسردها الآخرون كذكريات تستحق الحنين والحسرة، لكنها دائمًا ما تنطوي على صمت يتخلل الكلمات دون تفسير .. صمت أشبه بالظلام المتعمّد الذي لا يمكن أن تجادله .. ورغم أن جميع الحكايات كانت تنتمي لماضٍ لم يعشه؛ إلا أن شعورًا بخوف مبهم داخله ظل يتزايد .. كان يدرك أن الصمت الرابض في كل حكاية هو الشيء الوحيد الذي يتعلق به.

(4)

حمل ألبوم الصور الذي توثق لقطاته القديمة حياة شقيقيه الميتين مع أصدقاء اختفوا منذ زمن بعيد، ونساء مجهولات في أماكن مختلفة .. راح يدور في شوارع المدينة بحثًا عن تلك الوجوه، يدخل نفس الأماكن، يسأل عن الأسماء، يُلقي بأطراف الخيوط أحيانًا بشكل لا يبدو مقصودًا نحو سائقي التاكسي الذين تجاوزت أعمارهم الخمسين داخل الأحاديث العابرة، وأحيانًا يكشف الصور أمام عيون الغرباء .. كان الجميع يؤكدون له دائمًا بأنهم لا يعرفون أي شيء .. كل ليلة يعود إلى البيت خائبًا ومنهكًا، وكل ليلة أيضًا يفتح الألبوم ليراقب المحو الغامض والمتزايد للوجوه التي يبحث عنها .. كان يشعر أنه في صراع غير متكافئ ضد الوقت، ليس نتيجة الطمس التدريجي للملامح الذي لا يتوقف استنادًا لفشله في العثور على أصحابها، وإنما لأنه اكتشف بطريقة لا تقبل الشك أن ما بدأ يأخذ موضع الوجوه التي تُمحى داخل الصور كانت ملامحه.

(5)

لم تحضر أي واحدة من صديقات أخته عزائها .. الصديقات اللاتي كن يأتين إلى المنزل منذ أربعين سنة، ويجلسن معها في حجرة الصالون، أو تتجوّل معهن بين المتاجر والفاترينات ثم خرجن من حياتها فجأة .. لا يتذكر عنهن سوى الشعور الطويلة، والمكياج الثقيل، والهمسات التي خبّأت الماضي بإحكام .. الهمسات التي يسمعها الآن وهو جالس وحده في الحجرة ذاتها بعد مغادرة الجميع .. لكنها ليست هي نفسها التي احتفظت بها الجدران، وأرادت أن تعيد تمريرها إلى أذنيه في هذه اللحظة .. كانت همسات جديدة .. بالرغم من أنها لم تكن مفهومة أيضًا بالنسبة له، إلا أنه كان متأكدًا من اختلافها عن الماضي .. كان يستطيع تمييز ضحكات مكتومة داخلها .. ضحكات لا تخص موت أخته، بل ترتبط بالتلصص القديم لأذنيه وراء باب حجرة الصالون .. كانت ضحكات أقرب لوعيد شخصي.

(6)

كان يعرف أن جميع من كانوا أصدقائه لهم دور فيما حدث .. جميعهم بلا استثناء .. لكنه لم يطاردهم، بل على العكس ابتعد عنهم تمامًا .. غير أنه لم يفعل ذلك إلا ليلتقي بهم في المكان والوقت الملائمين له وحده .. ليجمع الذين لا يعرفون بعضهم، والمتناثرين في أزمنة مختلفة، وكل الذين لن يستطيع إيجادهم .. كان يمكنه أن يفعل ذلك بسهولة اعتمادًا على ذاكرته الإلهية، والدفاتر والأوراق القديمة التي دوّن فيها كل ما حرص على حمايته من النسيان .. ذكريات وأسماء وسطور وكلمات متفرقة وصور .. خلق جحيمًا متنقلًا للجميع .. لكنه كلما انتهى من شرب جرعة كبيرة من الدماء استمر الشعور البدائي في تأكيد نفسه .. أن العالم لا يزال في مكانه، والكتابة لا تزال في مكانها .. هكذا يخرج مجددًا رغمًا عنه من البيت ليطارد من كانوا أصدقائه، راجيًا ألا يعثر عليهم.

(7)

اكتشف، متأخرًا جدًا أن جميعهم يعرفون بعضهم .. حتى أن الفوات الفادح للأوان جعل من "التأخر" وصفًا سخيفًا وغير محتمل بالنسبة له .. كان يمكن أن تكون الإفاقة على هذا الاكتشاف، أقل وحشية لو لم يكن قد أدرك أن هذه المعرفة التي تشمل الآخرين كافة تقوم على تشابك صلب من الحكايات التي كانت، حياته الغافلة موضوعها الأساسي .. حياته التي وزّع أشلاءها بنفسه مضطرًا على كل من صادفهم ظنًا منه، ورجاءً أن يُحسنوا استخدامها .. ألا يمنحوها أرواحًا شريرة من الكوابيس التي تقتلهم يومًا بعد آخر فتتحوّل إلى أشباح تتسلل إليه من الجروح المتلاحمة في جسده .. ألا يتواطؤن حول عمائه كي تتزاوج أشباحهم وتتناسل فيصبح بيته المتهالك مأوى مثاليًا لمرحها الذي لا يقدر على اصطياده .. الآن ليس عليه سوى أن يقضي اللحظات القليلة المتبقية في محاولة استرداد أشلائه .. أن يكشف عن الروح الشريرة الأصلية التي كانت تسكنها قبل أن يقوم بتوزيعها على الآخرين .. أن يجعلهم يفيقون على ذلك الشبح الذي ظل متواريًا كي يضاجع من مخبأه جميع الحكايات التي كان يعلم تمامًا أنها ستتدفق من الجروح المتلاحمة في أجسادهم.



(8)

كأن كل زائر كان يغرس ضحكة سرية جديدة أثناء جلوسه فوق الأريكة القديمة منتهزًا عدم الانتباه إليه قبل أن يخرج من البيت .. كأن كل الضحكات المختلفة ظلت تتعارف وتتداخل وتوطد أحلامها في جوف الأريكة عبر الزمن دون أن يشعر بها أحد .. كأنها ظلت تنبعث مجددًا إلى الخارج كهواء ملعون، يقتل تباعًا كل الذين يعيشون داخل البيت في ثبات عفوي، وأمان محكم .. حتمًا رأى الجميع النهايات المأساوية المتعاقبة لزياراتهم .. لكن؛ هل سأل أي منهم نفسه ولو مرة واحدة من يكون ذلك الذي تعمّد أن يترك هذا الشق المخبوء في الأريكة القديمة، والذي غرسوا ضحكاتهم من خلاله؟.

(9)

كان اللقاء الأول بيننا .. سألني: هل تخشى الظلام؟ .. كذبت: لا .. سألني: هل تشعر بأن هناك من يتواجد معك حينما تكون بمفردك في البيت،؟ .. كذبت: لا .. سألني: هل تشعر برغبة في إلقاء نفسك من الشرفات والنوافذ العالية؟ .. كذبت: لا .. سألني: هل تستيقظ أحيانًا قبل لحظة واحدة من الغرق في بحر أو نهر معتم؟ .. كذبت: لا .. سألني: هل تشعر أن ثمة من دبّر زواج والديك قبل ميلادهما بسنوات طويلة، وأنه لا يزال على قيد الحياة؟ .. كذبت: لا .. هل تشعر أنه يسكن قبرك منذ اللحظة الأولى وحتى الآن؟ .. كذبت: لا .. قال: حسنًا، هذا ما أنا عليه حقيقة، وكنت أتمنى العثور على أحد يشبهني .. سألته: هل تعرف شيئًا عن الخريطة التي بداخل القبر؟ .. ابتسم متهكمًا كما توقعت ثم اختفى فجأة مثلما يفعل كل مرة أيضًا.

(10)

يعرف أنه أطعم السر بامرأة وطفلة صغيرة حينما أصبحتا زوجته وابنته .. أنه جعلهما تُقتلان بأكثر الأساليب غرابة، ودون احتمال للفهم .. سيكملان التاريخ الصامت إذن سواء في وجوده أو بعد فنائه .. لكنه يفكر: لماذا لا تكون المرأة والطفلة الصغيرة جزءً من الظلام الذي سبق كل شيء؟ .. لماذا لا تكونان هوّتين متحالفتين ضمن تاريخ المصائد المحتجبة، وتكملان الحتمية الغامضة حين أتى زمنهما المؤقت؟ .. يتأمل سكوتهما، نظراتهما المختلسة لبعضهما، ملامحهما التي تتحوّل كثيرًا إلى قناع مشترك .. بالتأكيد تعرف زوجته وابنته شيئًا .. ماذا يكون غير تفسير الحكاية القديمة التي لم يتمكن أبدًا من حل لغزها.

(11)

ربما كان واحدًا من القتلى هو من فعل ذلك .. أحد المعذبين في العائلة هو الذي كتب ورسم كل شيء قبل نهايته .. ربما أرادها مذبحة جماعية تشمل انتحاره، أو دعابة مخترعة لم يكن يعرف أنها ستنفجر في أجسادنا بشكل متواصل، أو أنه كان يجرّب دون حدس بالجحيم المنتظر أن ينقل على الحائط ما أبصره صدفة في كتاب ما، كأنما امتلك طريقة ممتعة لإراحة الذهن .. لكن أي كتاب؟ .. ربما كانت رواية لشيطان مجهول، أنهى كتابتها في التاريخ القديم المدوّن باليوم والشهر والسنة .. ربما كانت تحكي كل ما سيحدث لنا كنبوءة لا سبيل لإبطالها، ودون أن تسمح لذلك القارئ الجالس وحده في حجرة الصالون أن يدرك بأن مصيره مع أسرته يتراءى أمام عينيه في تلك اللحظة .. ربما كانت هي الرواية التي أتذكرها أحيانًا.

(12)

في مصادفات متباعدة؛ يقابلني واحد منهم .. يسألني: أين أنت، لماذا لم نعد نراك، هل أنت بخير؟ .. أرد: أنا دائمًا في البيت، مشغول بالدوران بين الحوائط والبكاء، أو الجلوس محدقًا إلى الحسرة، وهذا ما يجعلني في أفضل حال .. يقول هذا الذي كان صديقًا: حسنًا، نحن نعرف ذلك جيدًا؛ فنحن نلتقي كل ليلة في منزل أحدنا، ثم نتجمّع داخل شرفته لننظر إلى السماء فنراك بوضوح ساطع .. هل هذا يعني أن موتي ليس انعزاليًا بما فيه الكفاية؟ .. بالتأكيد .. لماذا تكذبون إذن في اللقاءات النادرة التي بلا موعد، وتسألونني دائمًا عن موضع خطواتي، وسر اختفائي، وإذا كنت على ما يرام أم لا؟ .. لأننا ببساطة منذورون لخداعك .. ومع ذلك فإن ثمة ما لا تعرفونه عني .. "يبدأ هذا الواحد منهم في الابتعاد" .. أنتم لا تشاهدون ما يحدث لي كل ليلة عند النظر إلى السماء، بل إن عيونكم هي التي تفعل كل شيء .. "يبتعد أكثر فأتحرك وراءه لتمعن المسافة بيننا في التمدد" .. كلما استمررتم في النظر إلى السماء كل ليلة .. "أضطر للصراخ كي يسمعني بعدما أدركت أنني لن ألحق به" .. كلما استمر الدوران والبكاء والتحديق إلى الحسرة.

(13)

في ورشة القصة القصيرة يصمت فجأة .. يتملّى في وجوه طلابه .. ما الذي فعله؟ .. كان يشرح شيئًا ما يتعلق بالتحريفات الصادمة للنسق القصصي، وحينما أراد استدعاء تطبيقًا له؛ ذكر جزءً مما حدث لعائلته .. قام بذلك كأنما قاطع حديثه سعال مفاجئ، احتفظ بعاديته للحظة واحدة قبل أن تسيل الدماء من فمه .. انتبه وهو يتنقل بين عيونهم المفتوحة عن آخرها باتجاه صمته إلى أن ما تفوّه به الآن، رغم اقتضابه، سيمنحهم ذاكرته كلها .. أن كل ما سيكتبونه، حتى لو بدا منفصلًا عن ماضيه سيمتلك وجودًا داخل دفاتره وأوراقه القديمة .. أن ملامحهم التي تحاصر وجومه سوف تجد أماكنًا لها في صور الماضي، حتى لو لم تتخذ طبيعة ظاهرة .. أدرك أن ما يسيل من فمه الآن هي دمائهم وقد اختلطت بدماء الجميع.

(14)

ربما كانت هذه بيوتهم التي أمشي فوق سطوحها الصامتة مع الغياب الوشيك لزرقة السماء .. أتنقل من سطح لآخر بخطوات انسيابية، كأنما تتوالى مربعات رصيف، هائلة تحت قدميّ داخل السكون النقي .. بيوت الذين يعرفون بعضهم .. الصمت الذي يمتد بلا نهاية حول حكاياتهم المخبوءة عن حياتي .. زرقة السماء الموشكة على الغياب تبدو كلون نزهة طفولية مختلسة، أرادت إنقاذي من الأرواح الشريرة .. لم يكن طيرانًا، وإنما سيرًا حقيقيًا أعلى الشوارع الضيقة التي يغطيها الظلام بالتدريج .. السكون أشبه باسترداد اللحظات الأولى في العالم .. مازلت أعمى، ولكن يمكنني الآن أن أسترق النظر إلى الكوابيس دون أن تشعر بي .. أستطيع الآن التجوّل داخل الجروح القديمة للأشباح .. أمشي فوق السطوح الصامتة للبيوت التي لا يشعر الموتى داخلها بخطواتي .. لا أرجو في هذا الوقت سوى أن تتجمّد تلك الزرقة السماوية الناعسة.. أن تتوقف عن الاختفاء التدريجي قبل أن تنفتح السطوح فجأة تحت قدميّ، أو تنفلت خطواتي عبر الحواف غير الآمنة فأتهاوى إلى الشوارع التي لا يمر منها أحد.



(15)

سلالم صامتة داخل ما يشبه مبنى فارغًا تمامًا، يحتضن نهارًا غير معهود .. ظهيرة استثنائية، بلا أصوات، تحرّض على ارتكاب سري ومبهم .. أصعد وحدي دون يقين عن هذا الأمر الذي أتسلل خارجه، أو عما سأعثر عليه حين أصل للنهاية .. لا أفكر سوى في أسرتي الميتة .. حينما أبلغ الطابق الأخير أجدني أمام البحر .. الأفق والأمواج والشاطئ .. أردد في ذهني بينما أتأمل المشهد المهيب: "الأرض في الأسفل، والمبنى الذي صعدته يحمل البحر" .. أرددها بإحساس أنها ضمن كلمات الطلسم الذي تسبب في كل ما حدث .. الكلمات التي أحيانًا لا أستطيع قراءتها .. وأحيانًا أقرأها وأنساها .. وأحيانًا أعيد كتابتها من جديد.

(16)

ألوان متوهجة لضجيج ليلي يتكاثر داخل طريق ممتد .. لا مكان لي في هذا الحفل .. أتحرك نحو ظلام شارع جانبي فارغ .. بيوت قديمة، تعكس الأضواء الشاحبة عيونها التي بقيت مستيقظة في انتظاري .. صمت متمهل يذيب الضجيج بالطريقة نفسها التي يُسكّن المخدر بها الألم تدريجيًا .. ما زال ضيق الوقت يطاردني .. أسير رافعًا رأسي لأعلى .. الأسماك الكبيرة تنظر لي من النوافذ والشرفات .. التاريخ القديم المدوّن باليوم والشهر والسنة يتناثر على الواجهات بخطوط متباينة .. العظمة البشرية منحوتة فوق كل بوابة مغلقة .. أرى قبري موزعًا بين هذه البيوت المتهدمة التي لا يسكنها أحد .. التي لابد أن فضاءاتها المهجورة تخفي الأجزاء المتفرقة من الخريطة الغامضة .. ماذا لو ناديت في هذه اللحظة على ذلك الاسم الغريب؟ .. لا أريدها أن تكون دعابة الآن .. ربما هذا ليس كابوسًا جديدًا .. ربما هذان القادمان من نهاية الشارع، تحت الغيوم الرمادية هما أمي وأبي حقًا .. ربما لن يحدث شيء اعتيادي سيدفعني للهرب بأقصى سرعة ممكنة.

هي نفسها الخلاءات المحيطة بكل بيت من بيوت أقاربي التي ظللت أتنقل بينها بحثًا عن السر الذي قتل والديّ وإخوتي .. لكنها في تلك الظهيرة تحوّلت إلى ساحات كرنفالية مزدحمة .. يخرج أقاربي جميعًا من بيوتهم، أو على الأقل يصطف بعضهم في البلكونات والشبابيك .. يتكاتفون مع أهل المنطقة السكنية في تنظيم الانطواءات المزينة للمرح الشعبي .. أستطيع أن أرى سعادتهم بالهواء المنسّم الذي يطير بالحكايات من داخل البيوت المفتوحة إلى الساحات الكرنفالية المزدحمة .. أنظر في عيونهم فأتأكد أكثر بأنه لا شيء سينجح في تعويضهم .. أما الصمت القابع في كل حكاية، والراسخ كعتمة مخيفة غير قابلة للتفاوض؛ فقد كان يحيط بتلك الظهيرة المزخرفة .. الصمت غير المستوعب، كأمواج مسنونة في عينيّ المغمضتين.

(18)

مصابيح صغيرة تومض في الليل .. كأن عُرسًا لا أعرف أصحابه قد مر للتو .. أجلس وحدي على جانب الطريق الضيّق تحت التراقص المنتظم للأضواء الملوّنة بعد ذهاب الجميع .. هل جئت متأخرًا، أم أنهم مروا أمام عينيّ في لحظة غفلة طارئة، ومقصودة .. كل ما لدي هو ذلك الصدى الباهت لإيقاعات الطبول وأنغام المزامير الذي ينسحب من الهواء بمرور الوقت .. لا أعلم أين ذهبوا، لكنني أدرك أنهم لن يعودوا، وأن هذه المصابيح ستُطفئ وحدها في نهاية الليل .. أدرك أنني لا أستطيع أن أبقى هكذا، وأنني سأنهض وأتحرك خارج الطريق فارغًا من كل شيء عدا ألبوم الصور القديمة الذي أخفيه بإحكام داخل ملابسي الثقيلة.

(19)

الشاطئ عتبة بيت .. الأمواج العالية جدران تتراكم الصور فوقها .. الأفق سماء الشرفة التي تطير إليها الدموع فترتد بالموت .. ظل قلبي يتلصص على الغرق حتى تحوّل في النهاية إلى قاع مظلم، بلا سطح، تحتشد فيه الجثث التي لم تكن في الماضي أكثر من مجرد ظلال وهمية، تحمل أسماءً، وتتحدث بيقين عن وجوهها التي تظهر في المرايا.

(20)

شوارع واسعة يهيّئ هواء الشتاء فراغها الغائم لمطر العصر ... أتقدم وحدي داخل المساحات الخالية إلا من ضوء السحب الداكنة والكثيفة .. أقترب من شريط القطار .. ليس هناك أحد من أولئك الذين كانوا أصدقائي في طرق المدينة الآن .. الذين كان لهم دور في ما حدث .. أنا متأكد من ذلك؛ لا لشيء سوى لأنني أحلق فوق القضبان الحديدية بينما القطار يعبر أسفل نشوتي مقترنًا بتساقط القطرات الصغيرة من السماء .. القطار المتخم بالموتى، ولا يقوده أحد.

(21)

الظلام يطغى تدريجيًا .. أعبر الشارع العريض إلى الجانب الآخر كي أدخل زقاقًا جانبيًا واسعًا، أقرب إلى مدينة مستقلة لن يبدأ سكانها في إضاءة المصابيح مع اقتراب العتمة .. سكانها الذين يعرفون بعضهم جيدًا .. أسير داخل الزقاق متلفتًا حولي .. البيوت ليست مساكن للبشر بل بنايات ذابلة تُصنع داخلها الدُميات الكبيرة .. ينظر الجالسون أمام كل مبنى كأصحاب المصانع إلى وجهي وأنا أخطو بينهم ثم يديرون عيونهم كأنما يتقاسمون الحكاية التي جئت بسببها إلى هنا .. أستطيع أن أرى من أسفل وعبر النوافذ العالية رؤوس الدميات التي تتجهز للخروج إلى الزقاق الموشك على إحكام ظلامه .. أستطيع أن أرى الأيدي التي تحاوطها وتعمل في أجسادها الكبيرة لإنهاء الأمر .. أشعر أنه المكان الذي سيمكنني من تجميع الأشلاء التي وزّعتها خارجه .. لكنني لا أعرف هل ستتحوّل الدميات الكبيرة إلى أشباح مع اكتمال العتمة .. هل غرست الأيدي التي رأيتها عبر النوافذ العالية أرواحًا شريرة داخل أجسادها .. أي كائنات تنتمي إليها تلك الأيدي .. هل هم أنفسهم الجالسين أمام المباني، وقد تركوا كوابيسهم في الأعلى لتجهّز الدميات قبل النزول إلى الزقاق الواسع .. لدي جروح متلاحمة يدركون تاريخها تمامًا .. يدركون أيضًا أنني أعمى، ولا أريد العودة إلى بيتي .. للدميات الكبيرة وجه واحد يتكرر في جميع النوافذ .. وجه واحد سيحاول أن يفتح فمه بكامل اتساعه ليبتلع الجالسين في الأسفل .. وجه واحد له نفس ملامحي.



(22)

أقترب من نهاية الرصيف الموازي للنهر .. لا أحد يمشي، أو يطل برأسه من أي مكان داخل الصمت .. فقط أنا والمطر المسائي والأضواء الخافتة .. تركت الضحكات السرية وتسللت إلى هذا الظلام المروّض .. أريد أن تستمر حياتي داخل هذه المساحة الصغيرة في نهاية الرصيف .. حيث كل الموتى الذين عاشوا داخل البيت قد تحولوا إلى موجات خفيفة ينساب لمعانها الخفيض المرتعش في عتمة النهر الممدد بين الأشجار .. الهواء ليس ملعونًا الآن، ولكن ربما هذا يعني أن الأحلام قد وصلت إلى نهاية ما .. ربما هي اللحظة الفارقة بين اكتمال الموت، وانتظار البعث .. اللحظة المتلاشية فورًا بيقين أن الموتى سيبقون موتى وحسب .. أن المأساة لا تحمل ثغرة رومانسية تحوّلهم حتى إلى موجات خفيفة للنهر الممدد بين الأشجار .. لا توجد ضحكات، ولم يعد هناك شيء داخل الأريكة القديمة .. لكن هذا لا يعني أكثر من أن ذلك الذي يتأملني وأنا أقترب من نهاية الرصيف داخل الصمت، وتحت المطر المسائي وبين الأضواء الخافتة عليه أن يغمض عينيه كأنما يقرر مصيري.

(23)

كأنما يتم قتلي بتكرار حصين في الليالي المظلمة كمشهد محذوف من العرض البطيء للحياة .. العرض الذي لا يستغرق أي وقت .. حينئذ أستيقظ كل مرة على لقاء مع مطر ناعم في عتمة أخرى .. عتمة شارع خال أعبره بتمهل عائدًا إلى البيت الذي تشاركني الوجود بين حوائطه الصخرية كائنات لا أعرفها .. كائنات لا أرها .. أفكر أثناء العودة في أن الشرفات والنوافذ العالية ليست مكانًا للقفز، وأن والديّ يدركان في موتهما هذه الخطوات التي تحرّكني بين متاهات المدينة .. أن الذي دبّر زواجهما قبل ميلادهما بسنوات طويلة ولا يزال على قيد الحياة يراقبني من مكان ما أثناء هذا العبور المسائي الممطر لقدميّ وسط المارة القليلين للغاية .. أشخاص متباعدون داخل صمت فاتن يبدو كتواطؤ على سحر شامل، مخلّص، يمتد من المدينة إلى خارج العالم، مرورًا بكل ذاكرة .. حينما أفتح عينيّ أجدني جالسًا على حافة قبري المفتوح .. أنظر في الداخل كأنما أنادي بلا صوت على الخريطة التي لا أستطيع رؤيتها.

(24)

أليس مؤسفًا حقًا أن تنظر إلى زوجتك وطفلتك وهما نائمتان آخر الليل، ولا تستطيع إيقاظهما كي تخبرهما بأنك لست بخير .. تتأمل وجهيهما تحت الغيمة الزرقاء الباهتة للمصباح الصغير المستقر في بداية ظلام الحجرة، كأن عينيك بابان زجاجيان يصدان ريحًا سوداء تعوي في قلبك .. هذا الصمت لا يؤكد شيئًا سوى الموت .. ستظل الأحداث الغامضة تتواصل خارج هذا البيت فيزداد مرضي الذي لا أقدر على الكشف عنه .. جرائم مجهولة .. ذكريات مريبة .. قتلة مخبوءون .. جماعات سرية .. طوائف دينية مبهمة .. طقوس مخيفة .. محضرّو أرواح يسكنون الصدوع القديمة .. تعاويذ مدفونة .. كتب سحر في منازل وفيلات وقصور عتيقة .. حفلات خفية .. أشباح تتجوّل في الشوارع المظلمة .. مخلوقات غريبة .. كائنات فضائية .. أطباق طائرة .. وحوش متوارية .. مذكرات ملعونة .. بنسيونات ولوكاندات وفنادق يتواعد خزنة الوثائق، والمخطوطات، والأساطير داخلها .. دكاكين مهجورة .. سراديب وأقبية تمتزج داخلها حكايات العتمة عبر الزمن .. أريد أن أبوح للمرأة والطفلة النائمتين عن الاحتضار الذي يمضغ جسدي المتيبس بأسنان نارية .. لكنني أعرف أن عيونهما المغمضة إذا ما فُتحت الآن في الضوء الخافت ستتحول فجأة إلى دوائر متجمدة لجثتين يعكس سطحها المصقول الدماء التي تتفجر من وجهي.

لا عليك؛ فلتتمدد في لحظة منفلتة من ظهيرة قديمة فوق سريرك الذي يواجه الشرفة المفتوحة على المبنى الشاهق ذي النوافذ الزجاجية المغلقة، والمطل على النهر من جانبه الآخر .. تمدد كأنك تعرف القاتل، وراقب من سكينتك كل هؤلاء الذين يتسلقون المبنى كسحالي صغيرة تصعد بإصرار ومشقة الواجهة الملساء لجبل أبيض .. تأمل العملاق المعدني، غامض الملامح الذي يظهر فجأة وراء المبنى حيث سماء النهر التي تتناثر السحب البيضاء فوق زرقتها الحريرية تشكل خلفية مثالية لوجوده المباغت .. ربما ذلك العملاق هو الذي ظهر لأحد المعذبين في حلمٍ ما أو تجلّى أمامه في اليقظة، وحرّضه على كتابة ورسم كل شيء قبل أن يموت في المذبحة .. يتساقط المتسلقون تباعًا من على جدار المبنى الشاهق عند ظهور العملاق فأشعر بالرعب الذي لا يهدد سكينتي .. تستحوذ عليّ نشوة الرعب .. كأنها الدعابة المريحة للذهن وقد تنكرت من أجلي كي لا أحس بانفجارها في أجسادنا .. ربما كان العملاق المعدني هو الشيطان المجهول الذي أنهى كتابة الرواية في التاريخ القديم المدوّن باليوم والشهر والسنة .. لكنني أدرك بينما أتمدد في هذه الظهيرة أن هذا التاريخ ليس قديمًا .. إنه اليوم الذي أعيشه الآن ممددًا فوق سريري الذي يواجه الشرفة المفتوحة .. لم تعد هناك نبوءة .. كل شيء يحدث في اللحظة ذاتها دون حاجة للتوقع .. تتساقط أجساد عائلتي من على جدار المبنى الشاهق .. تبصر صرخاتهم أثناء التهاوي نسخًا من جسدي الممدد في سكينة تنعكس على جميع النوافذ الزجاجية المغلقة .. الصرخات الصامتة التي تمرق لأسفل قبل هلاكهم وتبدو كأنها تعرف أن عينيّ الناعستين هما اللتين قطعتا الحبال اللامرئية التي كانوا يتسلقون بها المبنى قبل ظهور العملاق الغامض.

(26)

صالة البيت مظلمة في العصر .. ليس وقت الدوران والبكاء أو التحديق إلى الحسرة .. أخي أمام شباك الصالون .. ليس ميتًا، بل يقف ويشاهد العابرين ويدخن سيجارة .. هذا ينقص من موتي المنعزل بالضرورة .. حجرة أخي الآخر في الجانب المقابل مغلقة .. ضوء النيون المنبعث من وراء زجاج بابها الخشبي يؤكد أن أخي في الداخل .. ليس ميتًا بل ممددًا فوق سريره ويستمع إلى "الحب إللي كان" .. هذا ينقص من موتي أكثر .. أنا ظلام ما بين الحجرتين .. الصمت الذي لا يُظهر خطواته .. أنا سماء العصر قبل أن ينتهي ذلك اليوم للأبد.

فليتخيل كل منكم أنه يحلم بنفسه أثناء عبور شارع واسع، مزدحم قليلًا في ظهيرة شتوية، قادمًا من خيبة أمل لا يتذكرها، وعائدًا إلى بيت لا يثق في وجوده، ومع ذلك يشعر ببهجة غامضة، ربما بسبب المطر والبرد وزرقة السماء الطفولية التي تحوّل المشهد إلى غيمة هائلة .. تخيلوا أن هناك قصة عن شيء غير واضح ينبغي إنقاذه في هذه اللحظة .. شيء يشمل عائلة مفقودة خارج ذاكرة على وشك الموت .. أعرف جيدًا لماذا تبتسمون الآن، وتتبادلون النظر بأطراف العيون، ولكنني سأتجاهل ذلك النوع من البكاء .. هذا مشروع الكتابة الجديد .. فليكتب كل منكم هذه القصة حتى يقرأها لي في اللقاء القادم، وسأحاول بواسطة إعادة كتابتها من أجله أن أعثر على ذلك الشيء قبل انقضاء المُهلة التي لا أعرف زمنها.

أحيانًا لا يكون السقوط مؤلمًا .. أحيانًا لا يتم الانتباه إلى كونه سقوطًا أصلًا .. ذلك لأن هناك ثمالة منطقية في الخطو المفاجئ أمام دكان منكمش ذي بابين خشبيين مفتوحين في الليل .. نسيم شتوي برائحة مطر قريب، وهدوء راسخ كغفوة إلهية، وهمس متغيّر لراديو يمرر العالم وسط البضائع الشعبية داخل الدكان .. يتواطأ صوت الراديو مع الضوء الأصفر الخفيف لمصباح مترب يتدلى على جدار البيت القديم مكان لافتة غير موجودة .. أشخاص قليلون أمام عتبة الدكان يجلسون على مقاعد بوص عتيقة من مقهى مجاور، يتحدثون كأطفال سعداء بعناية التحالف بين الليل الشتوي، وصوت الراديو، وضوء المصباح لأرواحهم .. برائحة هذا المزيج ومذاقه داخل أجسادهم .. هناك مشترون يأتون .. قليلين أيضًا .. أقف أمام الدكان كأنما أطير داخل جسدي .. كيف يمكن أن يصدق أحد في وضعيتي هذه أن ما أعيشه الآن هو نتيجة للسقوط من فوق الأسطح الصامتة .. كيف أصدق أن كل ما أشعر به هو ألم في الحقيقة .. هذا المشهد الأخّاذ يقتلني عبر الثمالة المنطقية .. ليس أمامي سوى أشباح تدّعي عدم رؤيتي .. ما أنصت إليه هو ضحكات مراوغة للأرواح الشريرة .. لم تكن هناك سطوح صامتة أو شوارع ضيقة أو زرقة سماوية على وشك الغياب .. لم يكن هناك سوى عمائي الذي لا يتوقف عن الهذيان داخل كابوس بلا حواف.



(29)

هل هذا صباح باكر أم نهار ساطع أم عصر مشرق؟ .. حدائق ملونة وكثيفة، ممتدة بمحاذاة خطواتي، تفصل الرصيف عن المنازل الفخمة ذات الشرفات والنوافذ الكبيرة المغلقة .. هل غناء العصافير هو الصوت الوحيد الذي يدغدغ الصمت أم أن هناك ضحكات خفية لا أستطيع سماعها؟ .. ليس ثمة أحد غيري داخل هذا الفضاء الصحو، العطري والناعم، كأنما تبادلت السماء والأرض مكانيهما .. من يسكن هذه البيوت والحدائق المسيّجة بأسوار متصالحة مع النسيم البارد، ويمتلك هذا الفراغ الأشبه بآماد كارتونية شاسعة؟ .. كل شيء يؤكد لي أنهم زوّار البيت القديم .. بيت عائلتي الميتة .. كأنما اختاروا هذا الفردوس الخبيث والمؤقت في ذاكرتي ليختبئوا .. كأنما ذاكرتي نفسها هي التي ادخرتهم في خزائن هذه الموسيقى المكانية المنطوية بكامل اتساعها الساحر تحت أنقاض رأسي .. كيف يكونون قتلة إذن؟ .. أسير على الرصيف، بجوار حدائق منازلهم المقفولة، ولا أعرف إن كان هناك أحد حقًا بالداخل أم لا .. ربما تعيش عائلتي داخل تلك البيوت، لكنني أعجز عن التأكد .. ربما أنا الذي أعيش داخلها ولا أستطيع أن أنادي على نفسي .. ربما نعيش جميعًا معًا: العائلة الميتة وزوّار البيت وأنا، لكنني تسللت خارج هذه الأبدية الصغيرة لأتأكد من أمانها .. مع هذا أعرف أنني الآن وسط المجزرة وحولها .. أمر من الماضي وعبر الجثث المتراكمة وصولًا إلى الخيال .. أكون الجميع ولا أحد .. نعم .. أنا الذي أتحكم في كل شيء.

(30)

لم يعد يخشى الظلام وأصبح يجيد العوم دون أن يعلم كيف حدث هذا .. يسبح وحده الآن في بحيرة صغيرة آخر الليل أمام بناية عالية، انتهى منذ قليل الحفل الذي كانت أبوابها وشبابيكها مغلقة علي صخبه اللامع، ولم يعد يتذكره .. ليس هناك سوى جسده العاري والماء والظلام والأضواء الشاحبة والصمت والبناية العالية والفراغ الساكن من حولها .. يشعر بالراحة، ولكنه لا يزال يدرك أن هناك من يشاركه البحيرة، ولا يستطيع رؤيته .. يعرف أنه لن يغرق، ولكنه أيضًا يحس بأن ثمة من يراقبه داخل مكان ما .. من نقطة قريبة ومجهولة .. كائن لم يحضر الحفل، ومع ذلك لم ينصرف مع المغادرين .. يسبح وحده في ظلام البحيرة وينظر إلى البناية العالية .. هذا الصمت المهيمن على الفراغ الليلي، بأضوائه الشاحبة التي تطمس الظلال لا يخص هذه اللحظة بل ينتمي إلى عينين غامضتين تتطاير منهما الخطوط السوداء قبل أن تنتظم فوق الحائط كخريطة مستعصية لعذاب عائلي .. ينتمي إلى قبر يزداد عمقه كلما استمرت مراقبة الكائن المجهول للجسد العاري الذي يسكنه.

(31)

أقف أسفل بيت أخي ولكني لا أصعد .. أفكر في العصر الرائق، وسكون الشارع الجانبي أمام المدخل الواسع المفتوح على درجات السلم المضاءة بالنيون الناصع .. لكني لا أصعد .. هل الاستمتاع بالضوء الغائم للعصر، الذي يلوّن الرائحة النقية لنسيمه البارد هو الذي يمنعني، أم أنني أنتظر زوجتي وطفلتي؟ .. تبخر من ذهني المكان الذي أتيت منه إلى هنا، وكذلك السبب، ومع ذلك أقف مترقبًا بشوقٍ طفولي حدوث أمر ما .. أمر سينشأ عن جسر غير مرئي بين المكان الذي أتيت منه، وبيت أخي الذي أقف أسفله الآن .. أشعر كأنما يتم الترتيب لمناسبة عائلية ملغزة .. لكن كلما مر الوقت أدرك أن زوجتي وطفلتي لن تأتيا، وأنني لن أصعد .. هل أعرف أن أخي ميت؟.

(32)

طريق ممتد فيما بين مقهى قديم، يرتفع مدخله ببضعة سلالم بينما شريط قطار محتجب وراء السور الأسمنتي .. في العصر يجلس بعضهم على الطاولات القليلة وراء المدخل المرتفع للمقهى بينما تمر القطارات تباعًا .. داخل الطريق الممتد تطاردني الوحودش السوداء والطيور العملاقة والجثث المشتعلة .. تنهار مع حركتي البطيئة للأمام بيوت الطريق واحدًا إثر الآخر بينما يظل المقهى كما هو .. ينظر الجالسون على الطاولات إليّ من وراء السياج القصير لمدخله المرتفع .. لا أصاب بأذى أكثر من رعب الوعي بخسارتي لهذا الطريق .. بأنني المتسبب في كل ما يحدث نتيجة الكتابة والرسومات المدفونة داخلي .. هذه مذبحتي الشكلية التي تعطيني فكرة عن حقيقة الدعابة المنفجرة في الأجساد التي تكوّن جسدي .. صورة توضيحية للجحيم .. ربما قرأ الجالسون في المقهى كتاب اللعنة .. ربما هم الذين كتبوا ورسموا صفحات الرواية المجهولة .. ربما لا تذهب القطارات وتأتي إلا داخل التاريخ القديم المدوّن باليوم والشهر والسنة المحفور وراء جلدي.

الماء ثقيل وداكن، كأن النهر على وشك التحوّل إلى مستنقع .. في السكون الضبابي للعصر أصعد من جوف الماء لأتسلق الحافة الحديدية السوداء لكوبري القطار كي أدخل إلى ظلامه .. لا أحد من حولي، ولا أسمع أي شيء أكثر من الاختلاجات المهيبة المتقطعة للنهر وسط الصمت .. بكائي مكتومًا في حلقي، والحسرة ما زالت جاثمة في عينيّ، لكنني سأدور الآن على نحو آخر .. أمشي فوق القضبان بيقين أنه لا قطار سيأتي الآن، حتى أخرج من ظلام الكوبري ثم أجدني فجأة أمام مدخل الكوبري الآخر الذي تعبر السيارات فوقه، وقد أصبح الوقت مساءً متخمًا بالأضواء الساطعة والضجيج الاعتيادي .. كأن الاجتياز غير المدرك للمسافة بين الكوبريّين رغم قصرها قد التهم المساحة الزمنية بين العصر والليل .. ملابسي جافة، ولا أشعر بالتعب كما أن انتباهي إلى اكتساب مدخل الكوبري لارتفاع إضافي يمنحني شعورًا بالتناغم .. أخطو داخله كأنني لم أخسر انعزالي .. كأنني مازلت مخفيًا .. كأنني صعدت كوبري القطار بين أبي وأمي كما كان يحدث في الماضي، ثم سرنا بمحاذاة النهر حتى وصلنا إلى كوبري السيارات لنعبره عائدين إلى البيت .. لا أحتاج للصراخ .. أنا بخير .. عدا أنني لن أعود إلى البيت.

(34)

كأنهم اتفقوا في غفلة منه على توزيع القصة بين مشاريعهم داخل الورشة .. أحدهم وضع في قصته الشارع المألوف الذي تحوّل إلى طريق سفر طويل مظلم، وأكثر اتساعًا، دون أن يفقد التأكيدات التقليدية على أنه مازال شارعًا داخل المدينة .. كاتب آخر وضع في قصته الشوارع الجانبية الضيقة والمعتمة لهذا الذي تحوّل إلى ما يشبه طريق سفر طويل حيث ترقد سيارات قديمة، معطلة، وصدئة، تبدو فجواتها المتربة كعيون وأفواه تحنّط الصمت داخلها بعدما فشلت في التفاوض مع الزمن .. إحدى الكاتبات وضعت في قصتها المصابيح القديمة التي ينبعث منها الضوء الأصفر الشاحب، والمتناثرة على جانبي الطريق .. كاتب آخر وضع العابرين القليلين، وبعض الجالسين في هذا الليل الذي تمر وسط برودته الساكنة عربات عتيقة، وأصوات خفيفة ومتباعدة، لا تتطور أبدًا إلى ضجيج .. لكن لم ينجح أي منهم في وضع ذلك القادم بخطوات ملتذة وخائفة من آخر الطريق .. الذي كلما سار نحو بدايته ازدادت مساحته طولًا واتساعًا .. هذا المشهد تركوه لي حتى أضيفه إلى قصصهم بعدما وزّعت على بصائرهم كل ما وضعوه داخلها دون أن ينتبهوا.

(35)

وحدي آخر الليل، أخطو في نهاية مدينة تطل على البحر .. أتنقل ببطء داخل الفراغ المظلم الواسع كأنني تركت بيتًا لا أتذكر تاريخه، ولا السبب الذي جعلني أغادره في هذا الوقت نحو السكون المتجانس مع الأضواء القليلة الباهتة .. أتحرك في الحيز الشاسع من الصمت، الفاصل بين المنازل المغلقة، وطريق السفر الممتد خاليًا، كأنني أبحث عن أحد أو شيء لا أعرفه .. كأنني أطارد أرواحًا شريرة تخلت عني فجأة .. لكنني أجد نفسي بشكل مباغت أقترب من البحر .. أقترب بالبطء نفسه، رغم أنني منذ أقل من لحظة واحدة كنت في نهاية المدينة .. مع هذا لا يزال آخر الليل كما هو .. لا يزال السكون كما هو .. لكن الظلام أصبح أكثر حدة بفضل سطوع الضوء الأصفر لمصابيح الأعمدة المنتصبة داخل المساحة الرملية الواسعة أمام البحر .. أقترب وحدي من الأمواج السوداء الهادرة كأن عمائي يعتمد على قوة الإبصار لكوابيس محددة .. على رؤية ناصعة لأشباح تختزن الحكايات القديمة وتتبادلها وتعيد خلقها .. الحكايات التي يقودني سرها المجهول للتقدّم التدريجي نحو البحر، كطائر لا يستطيع الارتفاع بما يتجاوز أوهامه المؤقتة .. كطائر يعشق توهانه الذي يلصقه بالأرض.



(36)

زحام مسائي، مركزه المقهى القديم المرتفع قليلًا عن الأرض غير المستوية التي يغطيها الصخب .. الضوء الأصفر للمصابيح المنتشرة يُظهر الأجساد المحتشدة حول سور المقهى كأنما تصوّر حركتها المتداخلة بطريقة "السلويت" .. أجلس وحدي وراء السور ... أتلفت حولي من هذا العلو البسيط عن التجمّع الليلي المفاجئ، غير المنتظم، لغرباء يمضون في مساراتهم المتقاطعة دون أن ينظروا ناحيتي .. لا أسمع ضحكات، ولكنني أعرف أن شيئًا ما يخصني وسط هذا الزحام .. أفكر في أنني أجلس داخل المقهى بناءً على موعد غامض .. اتفاق مجهول على لقاء يتعلق باللحظة المنسية التي سبقت وجودي وراء السور، والضجيج الشعبي الذي لا أعرف هل سيخرج أحد من ظلامه الأصفر ليصعد إلى مكاني أم لا .. لا أعرف هل سيأتي أحد من خارج هذا التجمّع الليلي المفاجئ كي يجلس معي في المقهى أم لا .. ربما أجلس انتظارًا لنسيان كامل .. ربما أحد ما وعدني بطريقة مضمونة لمعالجة الذكريات لكنه لم يحضر بعد .. هل كل هؤلاء موتى؟ .. أين وجوه أسرتي التي قُتلت تباعًا إذن؟ .. هل أنتظر امتلاك عينيّ المحترقتين لقدرة خارقة على إزاحة المأساة إلى بدايتها كي أمنع تقدمها للأبد؟ .. كيف أستطيع أن أفعل ذلك وأنا الذي تواطأ مع المأساة حتى تؤخر موته إلى نهاية الجحيم؟ .. كيف أستطيع أن أفعل ذلك، وأنا الذي تسبب تأجيل موتي في الحصول على المضاعفات اللانهائية للموت بعد أن رأيت كل شيء رغمًا عني؟ .. أنا الذي ينظر إلى الزحام المسائي الصاخب من وراء سور المقهى المرتفع قليلًا عن الأرض غير المستوية، كأنه فكرة الموت نفسها التي سبقت وجود الجميع.

(37)

حجرة مغلقة داخل سفينة تتحرك ليلًا في بحر معتم .. الحجرة ليست مظلمة بل مضاءة بنيون أبيض قوي، ومع ذلك يبدو هذا السطوع الناعم كأنه الجانب الأكثر تسامحًا ودهاءً من الظلام المهيمن في الخارج .. هناك بشر قليلون معي في الحجرة كما توجد بعض الأشياء .. أنا متأكد من ذلك، لإنني ببساطة أراهم، وأستطيع التحدث معهم وسماعهم، بل ولمسهم أيضًا .. لكن هذا الاتصال الحسي بيننا لا يقدم ذخيرة كافية تساعد الحواس على تكوين صور حاسمة ومستقرة للحياة داخل الحجرة وإنما بالعكس يُبقيها مشوّشة .. بالرغم من ذلك فالتشوّش في هذه اللحظات لم يكن بالأمر السيء أو المعطل، وإنما على نحو مناقض، كان سر اللذة .. كان غياب اليقين الجسدي، وتعذّر المعرفة الذهنية هما ما يوطدان الصلة الغامضة بيني وبين البشر والأشياء، ويُعمقان من التآلف العفوي بين أرواحنا، والسبب المجهول الذي أوجدنا في هذا الوقت داخل هذا المكان .. كنا نستطيع من وراء الباب المغلق أن نرى جسم السفينة الأبيض المهيب كاملًا، مثلما كان بوسعنا أن نرى الامتداد الأسود للبحر من حولها وهي تتقدم للأمام في صمت .. كأن الحجرة أشبه بطائر ليلي شفاف، يمكنه التحليق في جميع الاتجاهات، وأن يقطع ما يريده من مسافات، مثبتًا ارتفاعه عند أي نقطة في الفراغ كلما أراد ذلك، دون حاجة للتحرك من مكانه في قلب السفينة .. كانت الحجرة كمخبأ داخل الزمن، يمكن للموتى استخدام عيونه السحرية في مراقبة القدر .. أن يشعروا للمرة الأولى بأنهم محميون من الغرق، حتى لو أدركوا فجأة أن تقدم السفينة للأمام ليس في حقيقته سوى تجوّل خارق ومؤقت حول قبورهم .. حتى لو أدركوا فجأة أن هذا التجوّل ليس ارتجاليًا وإنما امتثالًا لخريطة قديمة حُفرت في ذاكرة كل منهم دون أن يعرف، وحينما أفاقوا على أزليتها كان التجوّل قد انتهى.

(38)

نهاية شارع طويل جدًا .. تحديدًا قرب نهايته .. حيز صغير مضاء بالنيون الأبيض هو البقعة الوحيدة التي توقف ظلام الشارع عندها .. ليس الظلام فقط بل الصمت أيضًا .. ضجيج احتفالي لا يتخطى الحيز الصغير المضاء بالنيون الأبيض .. كذلك فراغ الشارع من المارة انتهى عند هذه البقعة .. هناك بشر تتناسب قلة عددهم مع المستوى الخافت من الضجيج الاحتفالي .. بينهم زوجتي وطفلتي .. قرب نهاية الشارع الطويل جدًا .. أنا لست معهما .. لكنني أستطيع رؤيتهما داخل الإضاءة ووسط الاحتفال .. أستطيع رؤية أنهما جميلتان وسعيدتان .. أستطيع رؤية أنهما ليستا وحدهما .. هناك رجل سعيد برفقتهما .. رجل أعرفه جيدًا .. أعرف أنه دائمًا محل سخريتي .. أنني أتمنى دائمًا مضاجعة زوجته .. أتمنى إذلاله .. لكن وجوده داخل هذا الحيز قرب نهاية الشارع الطويل جدًا مع زوجتي وطفلتي وضع شعوري القديم تجاهه داخل أرجوحة هادئة .. مازلت أسخر منه، ومازلت أتمنى جسد زوجته، لكنني أشعر بالنشوة لأنه يشارك زوجتي وطفلتي الضجيج الاحتفالي الخافت المضاء بالنيون الأبيض .. أستمتع بغضبي المستكين والمنعزل لأنني لست هناك .. بروحي المقهورة والمهملة، لأن زوجتي وطفلتي جميلتان وسعيدتان معه .. أستمتع بقدرته المهينة لي على جعلهما جميلتين وسعيدتين هكذا .. بإمكاني رؤية البريق الخارق لعيونهم المشبعة .. الامتنان غير المستوعِب في ملامحهم .. بإمكاني رؤية الابتسامات المسحورة لشفاههم وهي تتحدث عني .. نعم، يتحدثون عني الآن باعتبار أن هذا كله لي .. الإضاءة والاحتفال الصغير بشخصياته القليلة قرب نهاية الشارع الطويل جدًا .. يتحدثون عني كغائب يمتلك كل شيء .. يستحق كل شيء .. يتحدثون كأنهم في انتظاري، أو أنهم سيأتون لي حتى يحضرونني إلى هناك .. حتى يخرجونني من الشارع الطويل جدًا الذي اختفيت في ظلامه قبل أن أصل إليهم، وأتاح لي فقط القدرة على هذا التلصص المهلك .. تتصاعد نشوتي .. لكن شيئًا ما في وجوههم ينبئني بإدراكهم للحقيقة .. أنني لن أستطيع مغادرة الظلام .. أنني سر هذا الظلام .. أن التلصص هو طريقتي البطولية لإنقاذ الآخرين من لغز الحكاية القديمة .. لهذا تبدو كلماتهم التي لا أستطيع سماعها أقرب إلى الرثاء .. رثاء يحاول إبطاء إيقاعه حتى لا يصل إلى النقطة الاعترافية الأخيرة.

عربة قطار أحب أن أسميها حجرة، بالرغم من أنه يبدو مخصصًا لنقل البضائع لا البشر .. القطار قديم .. أشعر بذلك من التصدع الداخلي للحجرة، والذي لا يمكنني رؤيته بوضوح في الظلام .. من اهتزازته القوية الهادرة دون ألم، أثناء سيره البطيء في الليل .. لا أعرف أكثر من أن كل هذا بديهي للغاية .. حتى الباب المفتوح لحجرة القطار الذي يسمح للأضواء الصفراء الخفيفة المتناثرة حول القضبان بوخز متقطّع لظلامها .. كل شيء ضروري، رغم أنني لا أعلم الدافع الذي أوجده .. ربما يكمن المنطق في عدم إحساسي الغريب بالخوف .. ربما تكمن الضرورة في بقائي هادئًا بشكل عجيب داخل هذا المشهد الغامض .. كأنني أفهم حقًا ما يحدث، وأدرك نهايته .. كأن العالم لم يُخلق إلا من أجل هذه الرحلة المبهمة للقطار في الليل .. لا أشعر بالهدوء فقط، وإنما بالطمأنينة أيضًا .. أشعر بأنني أتبادل حديثًا مع أحد ما في ظلام الحجرة رغم تأكدي من أنني لا أتكلم أو أسمع شيئًا .. حديثًا وديًا مع أحد أعرفه .. شخص غير مرئي، ربما كنت أعتقد أنه ميت، ولكنه يمحو الآن هذا اليقين من ذاكرتي .. نتحدث عن كتابة تَحرّك هذا القطار القديم على إثرها في وقت كهذا .. عن رسم خلق هذا الظلام لحجرة القطار، وترك بابها مفتوحًا .. كلمات دون صوت .. انفعالات دون إبصار .. يتوقف القطار فجأة، فتسكن اهتزازاته، ويصمت هديره، ويتجمّد ظلامه، وتتحوّل طمأنينتي إلى حماس مبتهج .. كأنني وصلت إلى النهاية التي أردتها .. أعبر من باب الحجرة المفتوح الذي لا يؤدي إلى رصيف محطة بل إلى القضبان .. أغادر القطار كأنني في ختام مزحة متوقعة، لها ما يشبه إطارًا من الجدية المسالمة .. أنزل إلى شريط السكة الحديد الممتد داخل الفراغ الضبابي، والمضاء بنور أصفر ضعيف، كأنه ينبعث من شموع متفرقة .. أنتقل إلى هذا الصمت الأقرب إلى عتمة سمعية كأنني أخرج من رواية الشيطان المجهول .. كأنني أنا الذي كتبتها .. لكنني لست وحدي .. أحس بذلك الذي كنت أتبادل حديثًا معه في ظلام حجرة القطار يخرج معي .. لكنه ليس واحدًا .. أحس به ككثرة غير محسوبة من البشر .. كأنه كان يتكاثر ونحن نتكلم دون صوت أو إبصار .. نمشي جميعًا فوق القضبان ولا أرى سوى نفسي .. نفترق في اتجاهات متباعدة داخل الضباب الصامت كأنما سيحاول كل منا أن يتجهّز بمفرده لذلك التاريخ المدوّن باليوم والشهر والسنة، والذي لم يأت بعد .. كأنما سيكافح كل منا بطريقته الخاصة لتثبيت الوهم بأن هذا التاريخ لم يأت بعد، وأننا لم نكن نصرخ طوال الرحلة المبهمة للقطار في الليل، التي لم يُخلق العالم إلا من أجلها.

(40)

بعيدًا عن الشوارع الصاخبة في المدينة التي تطل على البحر؛ مطعم صغير على هيئة كشك خشبي ملوّن بزرقة خفيفة، ومُضاء بالنيون الأبيض في الليل .. يرتفع الكشك فوق أرض عشبية، تتراص داخلها طاولات ومقاعد قليلة، على جانب شارع مظلم تقريبًا، عدا الأضواء الصفراء الناعسة في الشرفات المغلقة لبيوت المتنزهين الخالية في هذا الوقت .. صوت التليفزيون داخل المطعم يدمج الحيوات البعيدة بضوء النيون الساطع، وبالعابرين القليلين في الظلام أمام الكشك الأزرق، والأطفال الذين يلعبون تحت أضواء الشرفات وبين الأشجار، محلقين في الهواء الأبوي للبحر الذي يغمر الآماد كافة .. أتجوّل وحدي دون حاجة لأي صدفة .. رغم أنه نوع من الدوران، ولكن هذه ليست حوائط .. حتى لو أردت البكاء الآن فسيكون لدافع آخر غير الذي اعتادني .. هنا أستطيع أن أختبئ من الحسرة كأن إغماءة مفاجئة للزمن أوقفت الأورجازم مبكرًا .. العزلة لا تعني الاختفاء في هذه اللحظة، وإنما أن أتنفس المشهد كاملًا مثلما ينتهز الأعمى حضور مباغت لرائحة منسية .. خطوة إثر أخرى، كشبح ممتن، كظل غير مرئي يذوب في التفاصيل، كفراغ أكثر خفة من نسائم البحر المتلاحقة، يتلصص على الموجودات، منغمسًا في نقائها .. خطوة إثر أخرى، كطفل سيء، طردته عائلته من ذكرياتها حين اعتقد أن تلك إغماءة مفاجئة للزمن.

(41)

تذكروا جيدًا؛ هناك شيء ما في ضوء شمس الظهيرة حين يسطع داخل المساحة الصغيرة بين شقتين متقابلتين عبر الزجاج المغلق لشباك السلم في بيت قديم .. في الصمت التام الذي يستكين هذا الضوء داخله .. في الظلال الثابتة المنعكسة على البابين المغلقين والحوائط وحاجز السلم ودرجاته والأرض الممددة بين الشقتين .. هناك قصة قصيرة متوارية منذ اللحظة الأولى من ماضي العالم تنتظر كاتبها .. تذكروا جيدًا؛ هناك مقبرة جماعية لديها دائمًا ـ مهما امتلأت ـ مكان وحيد شاغر لجمجمة جديدة حاولت أن تُبقي عينيها مفتوحتين.

(42)

ثمة أشياء ودودة، مخيفة، بل ربما هي الأكثر مودة وإخافة على الإطلاق، تمثل المكونات الأصلية للمرء، والتي أحيانًا يظل يكتشفها حتى اللحظة الأخيرة من حياته .. مثلًا العصر الشتوي الهادئ في المسافة الفاصلة بين دار سينما قديمة وشارع امتص الزمن داخله مراهقة جماعية لأصدقاء لم يجدوا مكانًا آمنًا لذكرياتهم .. ضوء أصفر باهت لمصباح صغير في بلكونة مغلقة لبيت من طابق واحد على جانب طريق سفر داخل صمت حقل واسع ومظلم في الليل .. نفس الضوء الذي يتكرر انبعاثه من المصباح ذاته في شرفة مقفولة لمنزل عالٍ وسط خلاء من السكون المعتم في نهاية مدينة تطل على البحر .. نور النيون الأبيض وراء شباك زجاجي كبير لبيت يطل على شارع صاخب، متخم بالبشر والسيارات والمطاعم والمقاهي ومحلات الملابس والأحذية والإعلانات البرّاقة والمتاجر الكبيرة .. العتمة الناجمة عن انقطاع الكهرباء في شارع عريض يمتد بمحاذاة النهر .. عبور مفترق طرق في ظهيرة ممطرة ممتلئة بالعابرين نحو منزل العائلة .. ربما هي المكونات الأصلية للعالم ونحن أشياؤه .. أشياؤه الودودة التي لا تخيف .. التي لا يمكنها حتى أن تهدد .. ربما نحن السطوح الصامتة التي تمشي الحياة فوقها .. الزرقة السماوية في عيني القدر .. نحن بيوت الموت.



بعد منتصف الليل .. أذهب إلى بائع الجرائد في آخر الشارع التجاري الطويل الذي قارب كرنفاله اليومي الصاخب على الانتهاء .. ثمة مغامرة سرية تتجهّز .. أشتري رواية بوليسية من بائع الجرائد ثم أمر على المقهى الملاصق له حيث لا يزال هناك بعض الجالسين داخله تحت ضوء النيون الأبيض، وبعض آخر يجلسون على الطاولات المتجاورة في الخارج .. أتبادل النظر مع الجميع، لكني لا أشاركهم الجلوس .. أعود إلى بيتي القريب من المقهى، وبينما ينام الجميع، أجلس وحدي داخل حجرة مغلقة بجوار شباك مفتوح على ظلام الشارع الذي أصبح خاويًا إلا من الصمت .. أبدأ في قراءة الرواية البوليسية التي تدور أحداثها بعد منتصف الليل، عبر بيوت مغلقة، وممرات جانبية معتمة لشارع تجاري طويل يتبدد ضجيجه تدريجيًا، وفي آخره مقهى مضاء بالنيون الأبيض، يجلس داخله بعض الذين لم يعودوا إلى منازلهم بعد، وينظرون في عيني عابر سيتركهم ليوزع خيالاته على جميع الموتى المختبئين في الصدوع كافة طوال الطريق إلى بيته .. لكنه لن يجد البيت .. لن يكون هناك سوى البحر الذي ينبغي أن يصعد إليه وحده ـ ككل مرة ـ ليبحث عن كلمات الطلسم التي يمكنه بواسطتها أن يُكمل كتابة الرواية التي يقرؤها الآن.

كأنني أرسم بقدميّ المرتعشتين محاكاة متوسلة للخريطة المجهولة؛ أخرج من الشارع الذي يرقد بيت العائلة في ظلامه إلى طريق رئيسي عبر مسار بعيد، يلتف حول العديد من الممرات الجانبية التي كان يمكن الخروج منها في وقت أقل .. الشارع الرئيسي مضاء بنور أصفر قوي إثر التعاضد المشع بين العيون الكبيرة للأعمدة المصفوفة على امتداده .. أمامي بناية ضخمة، لا يُسمع أي صوت من وراء نوافذها المغلقة، ولكنني بينما أتقدّم تدريجيًا نحو بياضها الشاهق أتأكد من أن ثمة عرضًا مسرحيًا يدور داخلها الآن .. هناك شعراء يلقون قصائدًا في الوقت ذاته .. مطربون وعازفون يقيمون حفلًا موسيقيًا .. رسامون يخطون ويلونون لوحات .. ممثلون يصوّرون فيلمًا .. لكل حدث مكان مستقل داخل البناية، ولكن من يؤدون كل ذلك هم نفس الأشخاص .. مجموعة محددة من البشر، تتكرر في القاعات والحجرات كافة، وتقوم بكل شيء في زمن واحد .. جميعهم يحملون الاسم الغريب ذاته .. قبري المفتوح هو الموضوع الأساسي لكل ما يفعلونه .. أنا أيضًا أشعر بجسدي أثناء التحرّك المتمهل للأمام قد تحوّل إلى عظمة بشرية تمضي نحو مستقرها الصحيح .. لكن عند اللحظة التي بدأت خلالها في التفكير حول إذا ما كان هذا هو التاريخ القديم المدوّن باليوم والشهر والسنة راح جسدي يتلاشى سريعًا قبل أن أصل إلى البناية الضخمة بينما توزعت نسخ من العظمة البشرية في كل القاعات والحجرات بداخلها.

(45)

ثمة حفل ينتهي بعد منتصف ليل شتائي داخل المبنى الكبير المضاء بمزيج من النيون الأبيض القوي، والأنوار الصفراء اللامعة .. باب المبنى مفتوح، وبشر كثيرون في الداخل، وفوق سلالمه المؤدية للرصيف الواسع أمامه .. لست متأكدًا هل كان عرضًا مسرحيًا أم سينمائيًا أم ندوة أدبية أم حفلًا غنائيًا أم معرضًا للوحات أو الصور .. أتسلل من بين الحشد المبتهج إلى الطريق الطويل الفارغ الموازي للنهر بأضوائه الصفراء الضعيفة .. الظلام يتكاثف تدريجيًا مع خطواتي المبتعدة عن المبنى نحو ناصية أعرف أنني يجب أن أتوقف عندها .. أفكر بعد تسمّر قدمي في ضرورة أن أعبر إلى الجانب الآخر حتى أصل إلى منزل أسرتي .. هل هم نائمون؟ .. هل ما زالوا مستيقظين؟ .. هل هم في البيت أصلًا؟ .. لا يمنع الهيمنة التامة للظلام سوى ضوء أصفر بالغ الهشاشة لعامود إنارة أمام الناصية يبدو كأنما يترنّح وسط هذا الخلاء الليلي البارد .. كيف أرجع ولم أعرف السر بعد .. بالرغم من أنني عائد من الحفل الذي لا أتذكر عنه شيئًا أكثر من أنه كان حول حكاياتي الغريبة عن القتل .. ربما ينبغي أن أظل هنا للأبد .. عند الناصية التي تواجه المسافة القصيرة الضبابية والواسعة المؤدية إلى منزل أسرتي .. يجدر بي أن أظل هنا كجزء أصيل من الصمت والعتمة الموشكة على الاكتمال .. من المطر المتوقع في أي لحظة .. كجزء أصيل من الفناء.

بين الطريق المضاء بضوء الأعمدة الأصفر الساطع، والشارع المظلم إلا من نور نيون أبيض خفيض يصدر من دكان بعيد لا يزال مفتوحًا؛ توجد العمارة الكبيرة التي أقف آخر الليل أمام أبوابها الزجاجية المهيبة والمواربة .. أحدق إلى ظلام المدخل الواسع والسلالم الرخامية محتميًا بالصمت والخواء والعتمة الخفيفة داخل الممر الأسفلتي الصغير بين الطريق المضاء والشارع المظلم .. في هذه اللحظة الشتائية الغامضة لا أوقن بشيء أكثر من أنني لم أغادر في الخفاء حدثًا صاخبًا وقع في مكان قريب أو منذ وقت قصير فحسب وإنما تركت خلسة مشهدًا كرنفاليًا مجهولًا يكمن في زمن مبهم أيضًا، ممتدًا عبر الأزمنة إلى خارجها، وأن ثمة ما يرتبط بذلك المشهد الاحتفالي داخل هذه العمارة الكبيرة التي تبدو ظاهريًا خالية بل مهجورة منذ فترة طويلة .. ربما يوجد اكتشاف لحقيقة ملتبسة .. إنهاء لغفلة .. خلاص محتمل .. لا أوقن بشيء أكثر من أن هناك أشخاصًا في الداخل .. في الأعلى .. موزعون عبر الشقق، مستيقظون، ويتبادلون الكلمات والضحكات المتعلقة بالأمر الذي غادرت في الخفاء ذلك الحدث البعيد من أجله .. أشعر كأن جميع البشر على الأرض نائمون الآن عدا هؤلاء .. أشخاص يختزنون الأسرار كافة ويلعبون بها كحواة الخلود .. لا أعرف ما الذي أنتظره؟ .. أقترب خطوة من مدخل العمارة الزجاجي المظلم ثم أتراجعها .. أتلفت بين الطريق ذي النور الأصفر الساطع، والشارع الذي يبهت ظلامه بنور النيون الأبيض الخفيض .. هل أتوقع أن يأتي أحد عبر هذين الاتجاهين؟ .. هل أتمنى أن يأتي أحد؟ .. هل أشعر أن هناك من يقترب بالفعل؟ .. ربما أنتظر داخل هذا الصمت البارد سماع شيء منقذ من وراء النوافذ والشرفات المغلقة يعوّضني عن عدم القدرة على الاستجابة لرغبتي في الصعود .. شيء يضمن النجاح للتلصص المعطّل .. الآن لا أراقب سوى نفسي كقاتل مغدور به .. كشيطان مُهان، يعرف أن الحدث الذي غادره في الخفاء قد انتهى .. أنه لن يتمكن من العودة إلى المشهد المجهول الذي تركه خلسة .. أعرف أن المستيقظين داخل العمارة الكبيرة يشاهدون وقوفي في هذه اللحظة الشتائية الغامضة أسفل النوافذ والشرفات المغلقة .. ينظرون إلى رغبتي في الصعود بألبوم الصور القديم الذي أخبئه وراء ملابسي كي أفتحه أمام عيونهم فيُعاد خلق العالم بصورة مختلفة لا تتنازل عن الانتقام من صورته الأولى .. لكنني سأبقى هكذا حتى بعد موتي .. ليس لأنه لا يوجد لدي مكان آخر فقط، بل لأن كل التفاصيل غير البشرية التي تحاصرني الآن تريدني أن أبقى هكذا .. كأن انتفاضات جسدي الذي لا أشعر به هي مقطوعتهم الموسيقية المفضلة التي لا ينبغي أن تتوقف.

أعرف أنه النهر .. ولكن الليل الذي أمشي فوق حافته قادمًا من عصر غائم يدفعني لإدراكه كبحر أسطوري لا يمكن سوى لواحد مثلي أن يرى الأمواج الرمادية الهائجة التي يُخبّئها وراء شاطئه اللامع الذي أخطو سريعًا بمحاذاته .. هل أنا الذي أحرّك الظلام أثناء المشي ليطغى لحظة بعد أخرى على شارع البحر أم أن الهيمنة المتلاحقة للظلام هي التي تدفع خطواتي المتعثرة فوق الرصيف المرتفع قليلًا عن الشاطئ .. حين تكتمل العتمة؛ أترك النهر ورائي وأعبر الطريق نحو الحديقة الواسعة التي تتدلى في سمائها السوداء مصابيح صغيرة ذات إضاءة وردية هادئة .. أتنقل ببطء وسط الطاولات والكراسي البيضاء الخالية كأنني في بيت ما .. منزل أرضي، مفتوح من الجهات كافة، في آخره تليفزيون يعرض مشاهدًا صامتة لا أستطيع رؤيتها، ومشغّل موسيقى لا ينطق، ورجل عجوز بوجه غير مرئي يحمل كاميرا فوتوغرافية جالسًا في انتظاري .. كأن السكون التام، والنسائم الباردة، والإضاءة الوردية للمصابيح الصغيرة المعلقة أشبه بنغمات تهويدة ليلية غير مسموعة تصدرها الأشجار الكثيفة العالية، والأزهار المتناثرة فوق المساحة العشبية الكبيرة التي أسير داخلها .. يظهر بعض الناس فجأة فوق الطاولات .. كأنهم أفراد عائلة واحدة توزّع جلوسهم باتفاق مسبق على الكراسي البيضاء .. ملامحهم مشوّشة على نحو يبدو لي بديهيًا .. أبدأ في سماع أحاديثهم الواطئة دون أن أفهمها .. كذلك صوت التليفزيون الذي ارتفع قليلًا ممتزجًا بصوت مشغّل الموسيقى .. لكني لا أستطيع تمييز ما أسمعه بشكل يتخطى انسجامي مع تلك الأصوات .. رغم النبرات الأقرب إلى الهمس تبدو الأصوات كأنها أمواج البحر التي يخبئها النهر .. يقترب الرجل العجوز الذي يحمل الكاميرا من عينيّ العاجزتين عن تبيّن ملامحه .. يمد يده المطموسة إليّ بالصور التي لا أعلم متى التقطها .. آخذها منه كأنما أخرج ذراعي من فوق حافة شرفة تطل على أفق شتائي تتكاثر الغيوم الداكنة في زرقته المتوهجة باحمرار الغروب .. الغيوم التي تغني دائمًا كل ما لا يستطيع صوتي الداخلي الإمساك به .. لا أعرف ما الذي يشعرني بالغضب وأنا أتأمل الصور .. بدأت السماء تمطر فاختفى المشهد بأكمله .. كأنها الدموع التي أذابت اللحظة كليًا .. عدا خلاءً معتمًا تمامًا .. باستثنائي والصور والغضب الذي لا أقدر على استيعابه .. ما الذي يوجد حقًا في هذه الصور التي أعطاها لي الرجل العجوز المتبدد مع جميع التفاصيل المتلاشية تحت المطر .. الصور التي أتأملها فلا أرى سوى تلك الوجوه التي طالما ظلت معي .. التي طالما تمعنت في ملامحها كمن يحفر في الغيب، وخاطبتها كأنها تسمعني جيدًا، ولكن لم يحن بعد وقت إجابتها على توسلاتي المضحكة .. ما الذي تغيّر .. هل يرجع غضبي لشيء ما خارج الصور، جعلني أنظر إليها وفقًا لمشيئته .. ربما هذا ليس غضبًا .. ربما يبدو كذلك حتى لا أشير بطريقة مباشرة إلى الاحتضار الموشك على نهايته .. اقتراب الموت الذي دُمغت حتميته داخلي بعدما تنكرت كرجل عجوز يحمل كاميرا حتى أعطي لنفسي في لحظة استثنائية صورًا التقطتها بعمائي طوال ماض لم أعشه .. الصور التي لم يقتلني سوى أنها ظلت على وضعيتها القديمة ولم ينبعث منها سكون مغاير أو نسائم باردة، أوضوء وردي على الإطلاق.

(48)

كأن الحياة كلها قد تحوّلت إلى بيت زجاجي هائل .. بعد لحظة واحدة من اكتشاف حجرات الزهور والنباتات بالغة الكثافة التي قُسّم البيت الزجاجي الهائل للحياة إليها؛ أعيد صياغة العبارة السابقة: كأن الحياة قد حافظت على البيت الزجاجي الهائل الذي كانت عليه .. الحجرات مصفوفة بجوار بعضها، وذات أبواب زجاجية مفتوحة بينما يمكن رؤية السماء، ولا شيء غير السماء من وراء زجاج الجدران الذي لا يمكن معرفة أين يبدأ أو ينتهي .. كأن الحياة قد حافظت على الظهيرة الشتائية بضوئها الأزرق الغائم، ورائحة النسيم البارد، وصوت المطر الخفيف الذي يعبر السقف الزجاجي بسهولة نحو النباتات المتلاصقة فيترك لآلئ مائية فوق أوراقها الخضراء الكبيرة .. أسير في الممر الأبيض الساكن أمام الحجرات متنقلًا من حديقة لأخرى .. هنا الحواس لا تعني شيئًا .. اللون والرائحة والصوت ليست معطيات تمر من خارج الجسد إلى نشوته الداخلية بل إن اللون والرائحة والصوت هم الجسد نفسه حيث لا يوجد شيء في الخارج .. ليست هناك مسافة بين الباعث والاستجابة .. فضاء مغلق من النشوة الخالصة كأنما لا أحتاج لأحد كي يخبرني بأنه لم يحدث أي مما ظننت، أنه الماضي .. لم يكن لي موتى أو أصدقاء ذات يوم.

(49)

كأن الحدائق المتراصة بجانب بعضها على امتداد النهر غيوم أرضية ملونة ومتداخلة في السكون البارد .. أسير وحدي فوق رصيف الحدائق عصرًا .. هنا ترك كل الذين يعرفون بعضهم الكلمات التي تخصهم من الحكاية .. الأشلاء التي اقتطعت من غفلتي .. أمشي كأنما أتظاهر بالحياة أمام أشباح لا أريدها أن تقتنص الروح الشريرة التي في داخلي .. على الأقل الآن .. أريد للدمية الكبيرة أن تستمر في الادعاء بأنها قادرة على رؤية ما تحاول قتله لأطول زمن ممكن.



(50)

حاول أن تبقى هكذا؛ فلديك كل ما تحتاجه .. بداية مساء هو نفسه الذي كان في بيت العائلة واصطحبك الآن نحو هذا الصمت المضاء بنور الأعمدة الأصفر .. لديك النهر والأشجار وكوبري القطار وكائنات غير مرئية في الخلاء البارد على استعداد للذهاب معك إلى أي مكان أو زمن داخل المدينة .. ليس هناك طلسم خبّأه الموت، ولم يتمكن أحد من العثور عليه إلا بعد أن انتهى من تناول الجسد الأخير .. حاول أن تبقى هكذا كتحلية واجبة للغة التي تواصل كتابتك.

مارة قليلون داخل شارع قديم تضيئه شمس العصر .. على ناصية طريق جانبي؛ بيت عتيق يمكن للعابر أمام بوابته الصغيرة المفتوحة أن يشاهد شقة الطابق الأرضي ذات الباب الموارب .. أخطو عتبة البيت ثم أصعد الدرجات القليلة للسلم الفاصل بين البوابة المفتوحة والباب الموارب .. أمد يدي لأدفع الباب بعفوية بطيئة ومترقبة .. ضوء تليفزيون، تُبدل المشاهد المتعاقبة فوق شاشته من مستويات الظلام داخل الصالة .. صور متحرّكة كأنها تسجيل انتقائي من الذكريات المرتّبة لعائلة لم ينتبه أي من أفرادها للحظة واحدة أن ثمة من يقوم بالتقاط هذه المشاهد لحياتها .. حجرات صغيرة مفتوحة، لا تحوي سوى الأثاث التقليدي، ومزيدًا من الصمت الملوّن بضوء العصر الخفيف المتسرّب عبر شقوق الشبابيك المقفلة .. أظل واقفًا عند عتبة الصالة ولا أعرف أين ذهب الجميع .. الذين تركتهم في منزل آخر وجئت أبحث عنهم هنا .. منزل آخر كحوض جاف لأسماك كبيرة .. ما أقف أمام صالته المظلمة إلا من الضوء المتغيّر للتليفزيون مكتوم الصوت ليس بيتًا .. ليس مكانًا أصلًا .. هو تاريخ قديم مدوّن باليوم والشهر والسنة .. أشعر بذلك بينما أفكر في أنه من المنطقي أن تكون بين مجموعة من البشر داخل فضاء ما ثم تتركهم كي تبحث عنهم داخل فضاء آخر .. هل هو فضاء آخر حقًا .. فجأة تتوقف شاشة التليفزيون عند التشويش الذي يعقب انقطاع البث .. تشويش ثابت يشبه غليانًا شبقًا لخلايا عظمة بشرية .. هذه عتبة قبري إذن .. نعم .. القبر ليس مكانًا، وإنما تاريخًا قديمًا مدوّنًا باليوم والشهر والسنة .. أغمض عينيّ ثم أفتحهما فورًا .. مازالت شمس العصر في الخارج كما هي، ولكن صالة المنزل أضيئت بالنيون الأبيض في اللحظة التي انطفئت خلالها شاشة التليفزيون .. مازلت وحدي هنا، وليست لدي رغبة في مغادرة هذه العتبة .. أريد البقاء في انتظارهم .. كأنني خارج الخريطة الغامضة، ولا أسمع ذلك الذي يحمل اسمًا غريبًا وهو يضحك مستخدمًا صوتي.

ألا تعرف ماذا ينتظرك فهذا ليس ما يحتاجه اليقين الذي يُسيّرك كي يرتجف .. عدم المعرفة هو جوهر اليقين الذي يقودك نحو هذا الخلاء في برودة عصر غائم، لم تعد الشمس خلاله سوى مصباح هائل، يسبح وسط السحب الداكنة والكثيفة، ويمنح ضوؤه الحريري الدفء للبيوت القديمة المكدّسة .. منازل مغلقة النوافذ والشرفات، يغطي اصطفافها مساحة كبيرة طوليًا وعرضيًا، ويبدو الخلاء الصامت كأنه عتبتها الواسعة التي تلهو النسائم الشتائية المعطرة داخلها، أو النهر الصغير الآمن الذي يفصل قدميّ عن واجهاتها المستكينة وسط الأشجار المتناثرة .. أرى ممرات ضيقة بين البيوت، ولكن ثمة بصر غامض داخلي يدرك اتساعها غير المرئي .. يستوعب ضرورة السير داخل أحد هذه الممرات وسط المنازل المتلاحمة حتى التوقف أمام مدخل صغير لبيت كأنه يستقر داخل المساحة الأكثر عمقًا من الصمت الغائم .. باب شقة الطابق الأرضي مفتوح، ينتظر صعودي السلالم القليلة وراء المدخل ثم عبور عتبته كأنما البرودة الناعمة قد أحضرت المدعو الوحيد لحفل بالغ السرية .. حفل أنا سيّده .. هذا ما سيخبرني به العجوز الجالس داخل الشقة، وابنته الشابة ذات الجمال المقوّض .. العجوز الذي عاش حياته منذ بدايتها وحتى هذه اللحظة كي يطارد الأسرار .. ابنته التي قضت عمرها كله كي تساعده في التوصّل إلى الأسباب الحقيقية للقتل .. يبتسمان لي، ويخبراني بأنني سأعيش معهما داخل هذه الشقة التي لا تتكوّن إلا من صالة صغيرة وحجرة واحدة، يطل شباكها المفتوح على الأشجار الطفولية التي يضيئ أغصانها وأوراقها النور الحريري الأصفر لشمس العصر، وتغرد عصافيرها مع ملاطفات النسيم الشتائي المعطر .. حسنًا .. سأنطوي هنا داخل هذا المخبأ الضئيل لتاريخ العالم كأنني سأعيش محميًا للأبد .. كأن هذه الجدران هي الشاطئ المنتظر للأمواج المعتمة التي تحتدم وراء جفوني المطبقة.

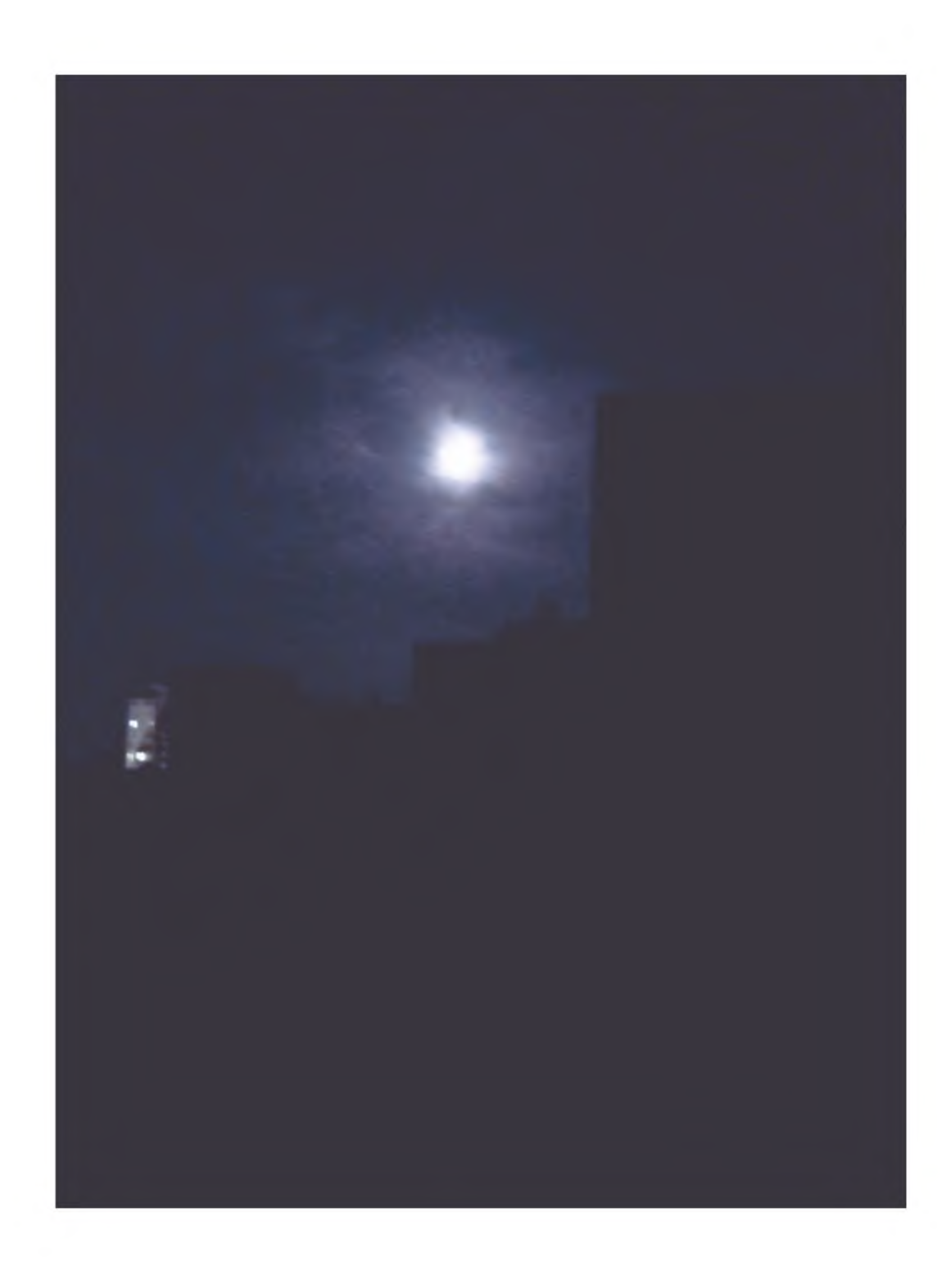
أرض ترابية واسعة لا يضيئها في ظلام الليل سوى نور أصفر باهت ينبعث من مصباح عامود ينتصب وحيدًا عند حافتها الجانبية .. كأن شريط قطار متوار أسفلها .. هواء شتائي ينشط داخل الصمت التام الذي أعبره وحدي نحو الأرض الترابية الواسعة كي أصل إلى البيوت المكدسة ورائها .. منازل متلاصقة، بعض من نوافذ وشرفات الصف الأول لها، والذي يطل على الخلاء الشاسع مفتوحًا، والبعض الآخر مغلقًا، ولكن ثمة ضوء أصفر ساطع لأباجورات الأسقف يشع داخلها جميعًا، بينما يخفت الضوء الأصفر لعامود الإنارة كلما توغلت داخل الممرات الصغيرة للغاية بين هذه البيوت .. أتوقف أمام باب خشبي لأحد المنازل .. باب مفتوح على حجرة مضاءة بالنيون الأبيض، وأثاثها ومفروشاتها على الطراز الشعبي القديم .. عجوز جالس فوق أريكة وحوله عائلته .. ينظرون لي بينما أقف عند عتبة الباب الخشبي كأنهم كانوا في انتظاري .. العجوز يجلس ممددًا تحت بطانية خفيفة كمصاب بمرض يمنعه من المشي .. عائلته تشاهد التليفزيون كأنه لا شيء يُعطّل سعادتها .. كانوا في انتظاري حقًا داخل هذا البيت المكوّن من حجرة واحدة بالغة الضيق .. أتقدم لأجلس بينهم .. أعرف أن وجودي هنا مؤقت، بل إنني سأكون في الخارج مجددًا بشكل فوري .. لكن ثمة شيء سأتركه هنا .. ربما جثة ما .. ثمة شيء سيتركه هذا المكان داخلي حين أغادر .. ربما الموت ذاته.

عدت من المدرسة إلى البيت .. قد تكون مدرستي الابتدائية، وقد يكون هذا بيتي، لكنني لست متأكدًا .. لا شيء يدل على هذا أكثر من شعوري بالصورة التي أتنقل داخلها دون أن تمنحني البراهين على صحته .. أدخل إلى حجرة داخل المنزل بوصفها غرفتي التي تعوّدت الرجوع إليها كل ظهيرة .. الشرفة مغلقة، وضوء الشمس ينساب من فتحات الشيش إلى الظلام الذي سأجلس داخله وراء الباب المقفل .. فجأة يُفتح مربع كبير في الجدار، كأنه شاشة هائلة، وراء إطارها ولدان، يظهران أمام عينيّ بصورة مكبرة، كأنما أتطلع إليهما عبر عدسة زوم، ويبدوان في العاشرة من عمرهما أو أصغر، ويشبهان بعضهما كثيرًا كأنهما أخان، وإن كان أحدهما يعطي انطباعًا بأنه أكبر قليلًا من الآخر .. يرتدي الاثنان ملابسًا أنيقة ومتطابقة تقريبًا، تماثل ما كان يرتديه الأولاد في برامج التليفزيون منذ خمس وثلاثين سنة: البلوفر الصوف، والقميص المتناسق مع لونه حيث تتوارى ياقته تحت فتحة البلوفر، والبنطلون المكوي جيدًا .. كان شعر كل منهما ناعمًا، وبُنيًا، ومصففًا أيضًا على جانبه بالطريقة التقليدية لذلك الزمن البعيد .. أحد الولدين الذي يبدو أصغر من الآخر تملأ الشامات البُنية الكبيرة وجهه الأبيض المسالم بشكل مفزع كأنها قطيع من الصراصير الميتة، منزوعة الأطراف ملتصق بملامحه .. يقف الولدان أمامي وراء النافذة المباغتة في الحائط كأنهما فوق سطح مشمس، شديد السكون لبيتهما المجاور، ولا يوجد ما يفصل بيننا أكثر من مساحة ذراعي الصغيرة، ومع ذلك أراهما يتحدثان كأنما وجودي القريب للغاية محجوب عنهما أو أنهما يتقنان التظاهر بعدم رؤيتي .. أسمعهما يتعاتبان بهدوء في أمر لا أفهمه .. بعد لحظات قليلة اكتشف أن الحجرة التي أجلس في ظلامها ليست إلا غرفة قديمة فوق سطح منزل أحد أصدقائي التي تشاركنا سنوات الطفولة والصبا داخلها .. هذا الشباك في الجدار يخص تلك الحجرة إذن، وبالتالي فإنني إذا خرجت من الباب المغلق سأتمكن من الوقوف مع الولدين فوق السطح .. لكني حينما أفتح الباب، وأتجاوز عتبته أجدني فوق سطح مدرستي الابتدائية، ولا أثر للولدين .. اكتشف على يميني امرأتين جالستين فوق بلاط السطح المشمس .. الأولى ذات شعر أسود طويل، عيناها معصوبتين بخصلات مقصوصة من شعرها، تلتف حول رأسها بإحكام، والمرأة الأخرى جالسة على ركبتيها، وتمشط لها شعر رأسها في سكينة .. تساءلت في نفسي: هل هما معلمتان في المدرسة؟ .. فجأة تظهر أمامي امرأة ثالثة، كأنها انبعثت من امتزاج غير مدرك للمرأتين الجالستين على الأرض .. رأيتها تنظر لي بعينين طوليتين، مشقوقتين من منتصفيهما، وتبتسم .. أسرعت بالجري من أمامها نحو الخلف، ليس كهروب من شيء مخيف، وإنما كمسايرة لدعابة ناجمة عن إدراك مباغت بأنني أحلم، وأن ثمة بابًا خشبيًا غير باب الحجرة التي غادرتها يقع في جانب ما داخل هذا السطح، حين أصل إليه، وأعبره ثم أغلقه خلفي سوف أنجو .. أرى الباب الذي أجري نحوه بالفعل، منتبهًا إلى خروجي من السطح نحو ممر مسقوف، احتُجزت شمس الظهيرة خارجه، ولكني حين وصلت إليه، وقبل أن أفتحه؛ التفت مبتسمًا في العتمة الباهتة للممر نحو المرأة ذات العينين المشقوقتين التي تطاردني، ووجهت إليها سبابًا بذيئًا ثم فتحت الباب ودخلت ثم أغلقته خلفي .. لم أجد سوى سلالم يضيئها النهار عبر النوافذ الزجاجية في حوائطها .. بدأت أنزل قفزًا، قاطعًا سبع درجات في القفزة الواحدة لأسفل حتى وجدت نفسي أمام بوابة المدرسة المفتوحة فخرجت منها إلى الشارع عائدًا من جديد إلى البيت.

(55)

للحظات قصيرة أكون في الداخل والخارج معًا .. أسير مرتبكًا في بداية الطريق الجانبي الواسع المؤدي إلى النهر مع نهاية عصر ممطر، وأشاهد نفسي أثناء هذا الخطو المتعثر كأنني أتأمل فوق شاشة ما مشهدًا من فيلم بالغ القدم، تمزق النغمشات المسعورة تفاصيله الباهتة .. أستطيع أن أرى بينما أتقدم باكيًا نحو النهر عينيّ المغمضتين اللتين تشاهداني كصورة مرتجفة، تُطمس تدريجيًا .. صوت محمد منير يغني "شجر اللمون" في الداخل والخارج معًا .. أثناء التطوّح للأمام بمحاذاة النهر الذي تضطرم أمواجه الفضية اللامعة بقوة المطر والبكاء، وبينما أشاهد بقعًا متلاحقة من العتمة تلتهم جسدي المنتفض داخل الكادر الغارق لحظة بعد أخرى .. أستطيع أن أرى بينما أتفتت ككلمات طلسم قاتل عينيّ المفتوحتين وهما تستردان عماءهما مع نهاية الأغنية، وإطباق الظلام الحالك على فراغ المشهد.

أخرج من بيت قديم داخل حارة ضيقة في عصر صيفي إلى شارع جانبي لأقطعه نحو الطريق الواسع الموازي للنهر .. هواء العصر الذي يستقبلني عند الناصية بقوته الناعمة يفرد أجنحتي .. أحلق إلى المكتبة .. إلى الحديقة المجاورة للمكتبة .. إلى الشارع الخالي المقابل للحديقة .. أقرأ وأجري وألعب الكرة .. كان هذا حفل شارع البحر اليومي، الذي كنت أظن أن الوقت يقف بائسًا خارجه .. لم يكن الضجيج مرئيًا .. لم يكن الظلام مسموعًا .. كانت الأسماك الكبيرة من حولي بارعة في التنكر .. كانت كل الأيام تاريخًا قديمًا مدوّنًا باليوم والشهر والسنة دون أن أعرف .. كانت أجنحتي مربوطة بخيوط مستترة في عظمة بشرية هائلة، تمتد دخل قبور مدفونة بالمساحة ذاتها التي قطعتها خطواتي في الفضاء .. الخطوات التي مرت بالخريطة الغامضة عبر الكتب والمباريات وسباقات الجري مثلما تعبر ظلالنا الأماكن التي نجتازها من غير أن نراها .. كان بمقدوري أن أتبادل اسمي مع أي أحد آخر، أو أضم حروف الاسمين معًا بأي ترتيب، أو أقوم بتحريفات دائمة على هذا الدمج كأنها لعبة جديدة لم تخطر على بال صديقين أو أكثر، دون أن يغيّر هذا في كوني أحمل الاسم الغريب نفسه كهوية أزلية متحجرة وراء ملامحي .. سنوات طويلة جدًا مرت ولا أعرف شيئًا عن نفسي أكثر من أن هواء العصر القديم يتسلل كل قيلولة إلى عينيّ المغمضتين، وأنني أرى المطر عندئذ ينهمر دون توقف فوق الطريق الواسع الموازي للنهر منذ العصر إلى بداية المغرب حين يبدأ النور الأصفر للأعمدة الممتدة من الحديقة وحتى المشتل القديم مرورًا بالمكتبة في إضاءة الشجر والأرصفة وواجهات المنازل الساكنة .. أنني أسمع حميد الشاعري وهو يغني "جيت يا شتا" خلال تلك اللحظات داخل رأسي .. لا أعرف شيئًا عن نفسي أكثر من أن هذا المشهد هو أكثر الكوابيس توحشًا، وأن الأكثر فداحة هو انتهاؤه سريعًا.



من مكاني داخل ظلام الحانة المضاء بزرقة خفيفة وعبر بابها الموارب أرى النور الخافت لبداية الصباح .. بشر كثيرون من حولي، أعتقد أنهم أقاربي وقد أحضروا الخلاءات المحيطة ببيوتهم إلى هذه الحانة كي يصنعوا هذا الضجيج الذي أجلس غريبًا داخله .. أراقب من فوق كرسي البار الضوء الأزرق الباهت للسماء عبر الباب نصف المفتوح وهو يكتسب تدريجيًا المزيد من الثقل .. لا أعرف أين تقع هذه الحانة بالضبط، ولكنني أدرك أنه ينبغي أن أغادرها الآن .. أتحرك خارج هذا الكرنفال الصغير المغلق دون أن يخبرني أحد عن السر الذي قتل والديّ وإخوتي .. بالرغم من أن ضوء بداية النهار كان لا يزال محتفظًا بخفته منذ لحظة واحدة إلا أنني حينما غادرت ذلك المرح السكران وجدت نفسي في قلب ظهيرة مشمسة بجوار كوبري السيارات، متقدمًا بمحاذاة الحدائق المصفوفة طوال شارع البحر نحو بيت العائلة .. قبل أن أصل إلى الناصية بمسافة قصيرة أصبح الوقت ليلًا فجأة .. اختفى العابرون والسيارات والأصوات كافة، ولم يعد هناك سوى الفراغ المستكين بذوبان الضوء الأصفر الشاحب لأعمدة الإنارة داخل عتمته .. أبطئ من خطواتي حتى أتوقف ثم أتلفت حولي .. هذا الصمت ليس داخل الحكاية أو خارجها .. هذا الصمت هو الحكاية نفسها .. هو لا شيء بصورة تامة .. حتى أنه لن يحتفظ بأي ذكرى لدموع لم تكمل طريقها نحو أنقاض بيت ما.

عينان مرتعشتان في وجه صغير لا يتكلم، تكوّنان جسرًا خفيًا بين ضوء نجفة الصالون الأصفر الممتزج بضوء مصباح النيون الأبيض، وصمت الشارع خارج الشباك المفتوح .. بين الأحاديث والضحكات المتقطّعة لزوّار المساء، وخفة الظلام وراء بيت العائلة .. بين الذكريات الساطعة حول طاولة صغيرة والغيوم الداكنة في سماء الليل .. عينان مرتعشتان لا تستبعدان إمكانية امتلاك سيرة مخلّصة للدنيا بواسطة هذا النوع من الاندماجات التلقائية .. لكن هاتين العينين لن تنتبها إلى أنه حينما ينزل الزوّار إلى الشارع آخر المساء لن تكون مغادرة عدة أشخاص لبيت عائلة ما، وإنما رحيلًا أبديًا لشتاء لم يكتمل .. لن تنتبها إلى أن وقوف الزوّار تحت شباك الصالون المفتوح قليلًا من أجل أحاديث وضحكات ختامية قصيرة ـ حيث مازالت الإضاءة كما هي ـ لا يعني توديع شيء آخر سوى الهواء البارد لهذه العتمة الرمادية ..
ستكتشف هاتان العينان المرتعشتان إلى أنهما كانتا تمتلكان ذلك العمى الأشبه بانقطاع المطر عن التدفق داخل ألبوم صور قديم.

لا أتذكر أين كنت في هذه المدينة التي تطل على البحر قبل أن أعود في المساء إلى البيت الذي تنتظرني طفلتي وزوجتي داخله .. البيت يواجه البحر وثمة درجات سلم قليلة تفصله عن الطريق الترابي المؤدي إلى الشاطئ .. حينما فتحت الباب وجدت المصباح النيون في الداخل يُضيء ويطفئ نوره الأبيض بوتيرة متلاحقة بينما تقف زوجتي أسفله .. كانت تنظر لي بعينين خاليتين من الانطباعات الغريبة وهي تخبرني أن المصباح أصابه فجأة هذا العطل بعد مغادرتي، وأنها لم تعرف كيفية التصرف، لكنها بعد قليل سمعت صوت امرأة خفية داخل البيت .. أخبرتها أنها امرأة ميتة، قُتلت تحت وطأة تعذيب قديم، وأنها سوف تتولى معالجة هذا المصباح من أجلنا .. كنت أستمع لها وعينيّ تتأملان من مكاني في بداية الصالة طفلتي الجالسة فوق السرير داخل الحجرة عبر بابها المفتوح .. كان وجهها شاحبًا بقوة، وعيناها غائرتين ونصف مغلقتين، ترتعش فيهما نظرة ذابلة تمامًا كأنها في ذروة المرض أو أن ليال كثيرة قد مرت عليها دون نوم .. لم تكن طفلتي كذلك حين تركتها منذ قليل .. أجبت على ما قالته زوجتي بسخريتي المعهودة، ورحت أوجّه لها أسئلة متهكمة حول هذه المرأة الخفية، ونبرة صوتها، والطريقة التي تحدثت بها معها، وإذا ما كانت قد أخبرتها بأشياء أخرى أم لا .. فجأة توقف ضوء المصباح عن الانطفاء، وظل محتفظًا بسطوعه الأبيض دون انقطاع .. ابتسمت زوجتي وسألتني كمن حصلت على انتصار غير متوقع: ألم أقل لك؟ .. رددت عليها بابتسامة فاترة، لا تصدّق، ولا تهتم، ولكن في الوقت نفسه لا يعوزها الشك .. كانت استجابتي الهازئة لما قالته بديهية، ولكن المعالجة الغامضة لخلل المصباح تثير ريبتي .. كنت على وشك التوجه إلى الحجرة للاطمئنان على طفلتي؛ لكنني وجدت زوجتي تخبرني بضرورة أن تشكر هذه المرأة .. تحركت إلى نهاية الصالة ثم رفعت يديها كأنها تُمسك برأس بشري قبل أن تمد شفتيها المضمومتين في الهواء لأعلى بما يعني منح قبلة لهذا الرأس غير المرئي .. رأيت زوجتي تخاطب المرأة بعد إعطائها القبلة ويديها لا تزالان مرفوعتين كأنهما مستمرتان في احتواء رأسها وتطلب منها ألا تحزن .. فجأة سمعت صوت بكاء أنثوي في الفراغ .. نحيب امرأة ذات خاطر مكسور بشكل فادح .. أسرعت بفتح باب البيت وخطوت للخارج بدماء متجمدة بينما كانت زوجتي تضحك .. امتزج بكاء المرأة الخفية بضحكات زوجتي بدقات قلبي القوية المتسارعة كأنه خليط متجانس من الأمواج العالية .. أمواج مشتعلة تلتهم الطريق الترابي، وشاطئ البحر، والأفق المظلم .. أتناثر مع فورانها كقصاصات صور محترقة، تذوب أثناء هبوطها إلى القاع الذي تبددت في عتمته الظلال الوهمية لوجوه الموتى .. كنت فقط أريد الاطمئنان على طفلتي ولكن لم يعد هناك وقت أكثر مما يسمح لها بأن تنهض من فوق سريرها كي تتطلع إلى شحوبها في المرآة ثم تسأل نفسها عني: أين ذهبت، ولماذا تأخرت حتى الآن.

لكنها ليست صحراء .. رغم أن المدينة قد توقفت منذ لحظات متدرّجة عن التمدد مع خطواتي، ولم يعد هناك سوى الرمال والصخور والفراغ الشاسع .. لكنها ليست صحراء .. هناك هواء شتائي يكاد يُطيّر جسدي الممسوس بينما أدور متلفتًا حولي داخل الصمت الثقيل .. هناك جدار هائل ينتصب في جانب الفراغ كأنما تم انتزاع بيت قديم منه وتُرك وحيدًا في هذا العصر الذي أوشكت غيومه أن تُمطر .. بالأمس كنت داخل هذا البيت، وأتذكر أنني خرجت من بين جدرانه التي يضيئها النيون الأبيض القوي إلى زحام ما .. ربما لم يكن ذلك بيتي .. ربما كنت في زيارة لغرباء لا أتذكرهم .. أو ربما كان هو بيتي الذي انتقل بطريقة غامضة إلى مدينة أخرى لا أعرفها .. هذا ما كنت أفكر فيه أثناء تحركي ببطء شديد وسط البشر والسيارات تحت الإنارة الصفراء الساطعة للأعمدة التي تراقبني .. كأن البطء الشديد لحركتي كان تمهيدًا لاختفاء البشر والسيارات وبقاء الإنارة الصفراء .. تحوّل البطء إلى تطوّح في الشوارع الخالية .. بدا الأمر أشبه برحلة مصيرية مبهمة داخل الطرقات المهجورة .. كأنما ريحًا تدفعني فوق الأراضي الواسعة فأشعر بجسدي مثل كيس بلاستيكي لم يعد بداخله شيء .. لا أدري هل أنا الآن داخل المدينة أم خارجها .. كل ما أدركه أن الليل قد تحوّل إلى عصر شتائي، ولم يعد هناك سوى جدار هائل ينتصب وسط الرمال والصخور أقف أمامه .. لكنها ليست صحراء .. ربما لو أسميتها كذلك لكان هذا هو المصير الذي أتظاهر بمراوغته.

في منتصف الحارة الضيقة أقف عصرًا أمام البيت القديم المتهدّم .. أنظر إلى الشبابيك والشرفات المتهالكة منتشيًا بالتوحد البارع والاعتيادي بين البرد والسكون والغيوم الكثيفة .. أعرف أنه يجدر بي الصعود، وأنني أتمنى هذا حقًا، ولكن ترددًا مبهمًا كأنه سر لطلسم أزلي، يرجئ تخط قدميّ لهذه العتبة العالية .. كأن جسدي رسالة ثقيلة، مجهولة، يطوّحها الهواء البارد، لا تدرك من الذي أرسلها، أو من سيستقبلها، ولماذا كان عليها أن تجتاز المدخل الجانبي للحارة ثم تتسمّر بعد خطوات قليلة في صمت كي تتجهّز لصعود تلك السلالم المتصدعة .. جدتي الميتة ليست في شقتها العلوية الصغيرة؛ ولكن ماذا لو وجدتها هناك، أو أن ثمة غرباءً يقيمون الآن وسط الحوائط المتقشرة والمشروخة، المدهونة بطمأنينة اللون السماوي، أو أن الشقة قد أصبحت خالية تمامًا؟ .. أتحرك متخطيًا العتبة العالية كي أصعد السلالم كأنما أحاول أن أنطق الكلمات المناسبة لاكتشاف الممر المنقذ داخل الذاكرة من بين جميع المسالك المدوّخة .. أصل إلى حيث يفصلني عن الباب المغلق للشقة بضعة سلالم، فأتوقف موقتًا بأنني لن أستمر في الصعود، ولن أطرق هذا الباب أو أحاول فتحه أو أسترق السمع من ورائه، وأن هذه اللحظة سبق تدوينها بحبر ثقيل أسود فوق جدار ما .. أعاود النزول فأعبر أمام كل شقة في الطابق الذي أتجاوزه وقد أصبحت أبوابها ـ بعكس ما كانت أثناء الصعود ـ مفتوحة بما يسمح لعينيّ باكتشاف جدتي مرتدية ثياب البيت التقليدية القديمة، وتجلس القرفصاء كعادتها في منتصف أرض كل شقة، مطرقة برأسها .. حينئذ أقول لنفسي أن هذا النوع من المتاهات هو ما يليق بي فعلًا .. جميع الشقق التي تجلس نسخ جدتي بداخلها تخلو أرضية كل منها إلا من الحطام الذي خلفه التهشيم الكامل للبلاط والطوب والتجريف المروّع للطبقات الترابية أسفله، أما السقف والحوائط فكانت سوداء كليًا بفعل حريق لاشك أنه استمر طويلًا بضراوة متصاعدة، ضمنت لنيرانه مواصلة التأجج الشامل حتى بعد إطفائها، حيث يطغى أثر الماء الذي انهمر سابقًا كمطر في كل حيز بما جعل الشقق المتتابعة تبدو كصناديق طفولية متطابقة تختزن الحميمية الثمينة للشتاء، بظلامها الرائق، غير المحكم، الذي تستكين الزرقة الناعمة للعصر البارد داخل انكماشه المهجور .. التأجج المتواصل تعكسه بصمات الدمار القاتم المحفورة بعمق بالغ في الجدران، وأشلاء السقف المعتمة، المتدلية بجمودها الحاد فوق رأس جدتي ذات العينين الشاردتين .. أدركت تفاصيل هذا المشهد المتكرر وراء كل باب مفتوح بينما أتخطى طوابق البيت واحدًا تلو الآخر دون أن يلتفت بصري تجاهه؛ إذ كنت متأكدًا بأن الفضاء الثابت الذي تجلس جدتي داخله في كل شقة ليس إلا بيت مرايا بالغة النصوع، وأن التصاق عينيّ بالمواضع المتكسّرة لقدميّ أثناء النزول سيتيح لي الرؤية التامة للمنظر المتعاقب الذي أمر بجواره دون تعطيل لمغادرتي، أو هكذا أعتقد .. أخرج إلى الحارة الضيقة كأنما لا أخرج من منزل جدتي وحدها بل من بيوت جميع أقاربي التي دخلتها بحثًا عن السر، وغادرت كلًا منها بحكاية جديدة ترسّخ الغموض، وتعمّق الصمت بوصفه الشيء الوحيد الذي يخصني منها .. أسير مبتعدًا عن الحارة بما يمزجها بشكل أقوى بارتجافي أثناء المشي على جانب الطريق الفارغ إلا من الأبنية المألوفة حيث التحرك في حد ذاته رهان خاسر، ولكنه يمثل الضرورة غير المهادنة الوحيدة التي تومض بوهم العبور من جحيم لآخر عبر مساحات استثنائية فاصلة.

ممدوح رزق

كاتب وناقد مصري

ولد في (المنصورة) 1977

ترجمت نصوصه إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

يقوم بتدريس القصة القصيرة في ورشته للكتابة الإبداعية.

شارك في تحكيم العديد من جوائز القصة القصيرة.

شارك في العديد من الملفات الثقافية بالصحافة العربية.

ألقى العديد من المحاضرات حول الكتابة والنقد الأدبي بمؤتمرات ومراكز ثقافية مختلفة.

ينشر ترجماته للقصة القصيرة والشعر في المطبوعات الثقافية العربية.

كُتبت العديد من الدراسات والقراءات النقدية عن أعماله.

اختيرت قصته القصيرة "اللعب بالفقاعات" ضمن المجموعة القصصية التي تُدرّس لدارسي اللغة العربية، غير الناطقين بها، كنموذج للقصة العربية المعاصرة بجامعة ييل الأمريكية.

اختير كتابه "هل تؤمن بالأشباح؟" عن كلاسيكيات القصة القصيرة كمرجع دراسي لطلاب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الأقصى.

ينشر نصوصه ودراساته في الأدب والفلسفة والسينما والتحليل النفسي والمسرح والفن التشكيلي والتاريخ الثقافي في العديد من الصحف والمجلات والدوريات والملاحق والمواقع الأدبية.

كتب:

- مكائد القص / مقرر ورشة الكاتب ممدوح رزق - دار ميتا للنشر والتوزيع 2021

- راي آرمانتروت "مختارات شعرية" / ترجمة - دار عرب للنشر والتوزيع 2021

- قراءات في الرواية العربية - دار ميتا للنشر والتوزيع 2021

- قشرة الطلاء الصغيرة / مسرحيات في فصل واحد - دار عرب للنشر والتوزيع 2021

- استراقات الكتابة - دار ميتا للنشر والتوزيع 2021

- كتمثال يحدّق في حائط / مجموعة شعرية - دار عرب للنشر والتوزيع 2021

- مطاردة الغياب / قراءات نقدية - دار ميتا للنشر والتوزيع 2021

- مقتل نجمك المفضّل / نوفيلا - دار عرب للنشر والتوزيع 2021

- ولقلبي سواده الفاتن / قصص قصيرة - مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع بالعراق 2021

- نقد استجابة القارئ العربي / مقدمة في جينالوجيا التأويل - دار ميتا للنشر والتوزيع 2019

- المطر في كارمينا بورانا / قصص قصيرة - دار ميتا للنشر والتوزيع 2019

- تشارلز بوكوفسكي .. ما وراء اللعنة، وقراءات نقدية أخرى - دار عرب للنشر والتوزيع 2019

- جرثومة بو / نوفيلا - دار عرب للنشر والتوزيع 2018

- إثر حادث أليم / رواية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة إبداعات قصصية) 2017

- خيال التأويل / قراءات نقدية - مؤسسة نور نشر الألمانية 2017

- هل تؤمن بالأشباح؟ / قراءات في كلاسيكيات القصة القصيرة - دار ميتا للنشر والتوزيع 2017

- هفوات صغيرة لمغيّر العالم / قصص قصيرة - منشورات بتانة 2017

- خيانة الأثر / الدراسة الفائزة بجائزة المقال النقدي بالمسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة 2016 - دار ميتا للنشر والتوزيع 2016

- عتبات المحو / مقالات في النقد التطبيقي - دار عرب للنشر والتوزيع 2016

- دون أن يصل إلى الأورجازم الأخير / قصص قصيرة - مؤسسة المعبر للثقافة والإعلام 2015

- بعد صراع طويل مع المرض / شعر - دار عرب للنشر والتوزيع 2015

- فأر يحتفل بخطاب الحقيقة / مسرحية - دار عرب للنشر والتوزيع 2015

- الفشل في النوم مع السيدة نون/ رواية - دار الحضارة للنشر 2014

- مكان جيد لسلحفاة محنطة / مجموعة قصصية - سلسلة حروف (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2013

- الخبراء في الحياة / مسرحية من فصل واحد - دار ميتا للنشر والتوزيع 2013

- عداء النص / مقالات نقدية - دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني 2013

- صندوق الذكريات / مجموعة قصصية للأطفال - دار عرب للنشر والتوزيع 2013

- خلق الموتى / رواية - سلسلة إبداع الحرية 2012

- قبل القيامة بقليل / مجموعة قصصية - دار عرب للنشروالتوزيع 2011

- سوبر ماريو / رواية - دار ميتا للنشر والتوزيع 2010

- بعد كل إغماءة ناقصة / نصوص - دار المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات 2009

- السيء في الأمر / نصوص - دار أكتب للنشر والتوزيع 2008

- رعشة أصابعه .. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة / نصوص - مكتبة معابر الإلكترونية 2004

- جسد باتجاه نافذة مغلقة / مجموعة قصصية - سلسلة أدب الجماهير 2001

- احتقان / مجموعة قصصية - سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2001

- انفلات مصاحب لأشياء بعيدة / مجموعة قصصية - مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 1998

كتب مشتركة:

- يوم واحد من العزلة / مجموعة قصص قصيرة جدا مع كتّاب عرب - دار فراديس للنشر والتوزيع 2013

- الكاتب وتحديات اللحظة الراهنة / دراسات مؤتمر اليوم الواحد لاتحاد الكتّاب مع نقاد مصريين 2012

- النمو بطريقة طبيعية / مجموعة قصصية مع كتّاب مصريين - دار ملامح للنشر 2009

- العامية كنز الإبداع / دراسات الملتقى الثاني للمّة بيت العامية المصرية مع نقاد مصريين 2009

- ملامح وعرة / ديوان شعر مع الشاعرين السوري (عبدالوهاب عزاوي)، والعراقي (صلاح حسن) - اتحاد كتّاب الانترنت العرب 2005

أفلام:

- قصة فيلم (مكان في الزمن) / روائي قصير - إخراج: نواف الجناحي 2019 / عُرض بمهرجان شيكاغو السينمائي الدولي 2020

- قصة وسيناريو فيلم (إخفاء العالم) / روائي قصير - مع فناني أفلام اسكندرية المستقلة / إخراج: محمد صبري 2012

ـ سيناريو فيلم (من أجندة الخيانة) / روائي قصير ـ بالاشتراك مع المخرجة الإماراتية (منال بن عمرو) / مجموعة دبي للأفلام ـ إخراج: منال بن عمرو 2008 / شارك بمهرجان الخليج السينمائي 2008

ـ قصة وإخراج فيلم (بازل) / موبايل ـ شارك بمهرجان القاهرة لأفلام الموبايل 2008

جوائز:

ـ جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة عن المقال النقدي (خيانة الأثر) 2016

ـ القائمة القصيرة لجائزة (ساويرس) في القصة القصيرة عن مجموعة (مكان جيد لسلحفاة محنطة) 2015

ـ جائزة اتحاد كتّاب مصر عن قصة (دخول المرآة) 2014

ـ جائزة نادي القصة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013

ـ جائزة رابطة الأدباء العرب عن قصة (التخلص من الذباب) 2013

ـ جائزة (أحمد بوزفور) المغربية في القصة القصيرة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013

ـ جائزة شبكة المنصورة الإخبارية في القصة القصيرة عن قصة (الثقب الذي لا يعنينا في الساحر الطيب) 2012

ـ جائزة دار ملامح للنشر في القصة القصيرة عن قصة (النمو بطريقة طبيعية) 2008

ـ جائزة ملتقى مدد في الشعر عن نص (نار هادئة) 2007

ـ جائزة منتدى جريدة شروق الإعلامي الأدبي في القصة القصيرة عن قصة (بلا أدنى خجل) 2006